عبد المعين الملّوحي

مِن أيّام فرنسا في سُورية





قصص

دار الحضارة الجديدة

من أيام فرنسا في سوريا
عبد المعين الملوحي
دار الحضارة الجديدة

عبد المعين الملّوحي

مِن أيّام فرنسا في سُوريّة

قصص

دار الحضارة الجديدة

الطبعة الأولى
١٩٩٢

دار الحضارة للطباعة والنشر
بيروت

بيروت - لبنان
ص. ب ٦٦٩٨-١١٣

الاهــــداء

إلى سلطـــان باشـــا الأطـــرش
القـــائد العام للثـــورة السورية الكبرى
وإلــــــى..
كل إخوانه وأبنائــــه المجاهدين،
الذين لبوا نداءه في مقارعة الاستعمار الفرنسي
فقتلهم أو شردهم أو ألقى بهم في الســـجون،
أهدي هذا الكتـــاب....

تمهيـــد

عندما أطلق سلطان باشا الأطرش، القائد العام للثورة السورية الكبرى الطلقة الأولى إيذاناً بالثورة على الاستعمار الفرنسي، هبت سورية كلها في مدنها وريفها مؤيدة له.

وكانت من هذه المدن مدينتي حمص..

كنت في الثامنة من عمري عام ١٩٢٥ ، عندما شبت نيران الثورة، وأتيح لي أن أعرف عدداً من ثوار بلدتي عن قرب، فقد كان بيت والدي المرحوم الشيخ سعيد الملوحي مأوى للمجاهدين الأبطال في فترات متقطعة، وشهدت عدداً من مواقفهم في حالات الجهاد والموت والسجن، وعدداً من جرائم الاستعمار الفرنسي، وهو يسعى للقضاء عليهم.

وها أنذا أنشر اليوم بعض هذه المواقف والجرائم لأذكر الشعب العربي ببطولات أبنائه الأحرار وبجرائم الاستعمار، عسى أن يكون في هذه الذكرى مايحثه على الخلاص من بقايا ركائز الاستعمار في بلادنا ولاسيما في فلسطين.

دمشـــق ١٩٩٢/٤/١٠ — عبد المعين الملوحـــي

المقدمة

هذه هي المجموعة القصصية الثانية التي أنشرها بعد نشر مجموعتي القصصية الأولى (طعم التخمة وطعم الجوع)..

تضم المجموعة الثانية وقائع شهدتها في مدينتي حمص خلال الثورة السورية الكبرى التي قادها سلطان باشا الأطرش، والتي فجرت نقمة الشعب العربي في سورية على المستعمرين الفرنسيين، ولذلك جعلت عنوان هذه المجموعة (من أيام فرنسا في سوريا)..

وسيلمس القارىء لمس اليد روح التضحية التي تميز بها الثائرون وروح تضامن الشعب وتأييده لهؤلاء الثائرين فكأن الشعب كله أصبح جبهة واحدة تعمل لهدف واحد هو الخلاص من الاستعمار البغيض.

لقد كنت طفلا عندما اندلعت نيران الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥ ورأيت بعض ماجرى فيها من بطولات وتضحيات رأي العين، وما تزال هذه الأحداث مطبوعة في بؤبؤ العين، مسجلة في حبة القلب في قوة لا يضارعها التسجيل على الصخر.

كل ما أريده من نشر هذه المجموعة أن أذكر الشعوب على العموم، وشعبنا العربي على الخصوص أن طريق الحرية طريق واحدة مرصوفة بأجساد الضحايا معبدة بدماء الشهداء..

عبد المعين الملوحي

يوم من أيام فرنسا

إنه يوم الثلاثاء وإنها الساعة الرابعة بعد الظهر..

كنا صغارا تلاميذ في المدرسة الخيرية الإسلامية، وكنا إذا خرجنا من المدرسة خرجنا في صفوف منتظمة إلى أحيائنا، نشحط قباقيبنا شحطا، فترن في أزقة حمص رنينا غير منتظم، ولا موزون..

وكنت أنا في ذلك اليوم عريفا على الصف الذي يسير إلى حينا في جورة الشياح..

لم تكن حمص كما هي الآن: كان يقوم من رأس فندق رغدان اليوم إلى فندق النصر سور طويل عتيق هو سور القشلة، وقد قدت فيه دكاكين قديمة متهدمة ذات أبواب من خشب، وبين هذه الدكاكين وشارع بونسو كانت تجري ساقية حمص وفيها مورد مكشوف ينخفض عن مستوى الشارع ذراعا أو ذراعين، يرده الناس والحيوان والعجلات جميعا، أما العجلات فكانت تغسل وتنظف، وأما البهائم فتشرب وأما الناس فيغتسلون ويشربون.

وكان طريقنا في الجانب الغربي من دار الحكومة الحديثة وكانت هي أيضا ثكنة عسكرية يمتد سورها امتدادا لم تكن له نهاية عندنا نحن الصغار، فإذا جاوزنا السور ملنا إلى اليمين وسرنا في شارع القوتلي اليوم لا ننطق ولا نلعب ومن لعب فسوف يلقى في غده من المدير ما يلقى.

سارالطلاب في طريقهم صامتين، وسرت إلى جانبهم أراقبهم وأعد عليهم أنفاسهم، فليس من المستبعد أن يكون مديرنا يراقبنا عن كثب، إن حذاءه من المطاط قمين أن يخفي علينا خطواته، فإذا هو منتصب أمامنا بشاربه الأحمر وقلبقه الأسود المخيف.

وبلغنا دار الحكومة القديمة آنذاك، وإذا نحن نسمع من ناحية شارع حماة أبواق الجيش الفرنسي تعزف نشيدا كله فرح ومرح ونشاط الطبول تقرع قرعا شديدا يصم الأذان، والأبواق تجلجل في الفضاء والناس يهرعون من كل جانب، لكأن في هذا النشيد أمرا جديدا..

وسمعت رجلا يقول: قتلوا عمر المجرص.

كان الخريف قد أقبل يجر الغيوم فيغطي بها وجه السماء، ويجرد الأشجار فيغطي بأوراقها وجه الأرض، والريح باردة سجواء، والسماء عند المساء ما تزال تلقي عليها الشمس

من خلال الغيوم أشعة باهتة صفراء فتعكسها السماء على الأرض أشد صفرة وضعفا، وتعكس الغيوم ظلالها على الأرض سوداً حيناً وبيضاً حيناً، فتحسب أنك في نهار وتحسب أنك في ليل: منظر يقبض النفس، وكأنما يحاول أن ينتزعها من الصدر انتزاعا، ومع ذلك فهو يمد لها في أجلها قليلا حتى نزداد، ألما وكآبة، ونحن لانجد لأنفسنا سلوى إلا في تلك الأوراق الميتة الصفر، تتمدد على الأرض فندوسها بأقدامنا الصغيرة فنحطمها تحطيما، فكأنما نحطم عظام الموتى في المقبرة.

وهذه الموسيقى تأتي من بعيد تعزف لحنا منتصرا كله قوة وحماسة ولكنها لم تكن توحي إلينا أبدا إلا أنها لحن جنائزي يزيد الجو سوادا وقتاما، إن أفراح المستعمرين كانت وما تزال مآتم العبيد.

كنت أعرف عمر الثائر: كم داعبني وحملني بين ذراعيه الجبارتين وأعطاني مسدسه وبندقيته وخنجره، ألهو بها وألعب، فلقد كانت دارنا مقر الثوار سنوات يختبئون فيها حينا ثم يغادرونها حينا ثم يعودون إليها، ولقد كان أبي ـ رحمه الله ـ الشيخ الذي آوى الثوار وجعلهم أبناء بررة ولم يمسح بوجوه الفرنسيين حذاءه.

كنت أعرف عمر الثائر: فلم أكد أسمع أنه قتل، حتى

تركت الصف ثم عدت إليه ، ثم تركته ثم لم أدر إلا أني واقف مع الناس على الرصيف، لم أسرح الصف ولم أشعر أن قد كان علي أن أسرحه ونسيت العقاب، ونسيت المدير..

وتجمع الناس حتى ماتكاد تجد موطئا لقدم، وأقبلت الشرطة بسياطها تخلي قارعة الطريق، فما أسرع ما أذعن الناس صامتين، كنت لا تسمع في الشارع كله صوتا ولا ركزا، بل لكأن الناس جميعا كفوا عن تنسم الهواء فهم لا يتنفسون، وكفوا عن الحركة فقلوبهم لا تخفق في صدورهم، والطلاب الصغار الذين كانوا في الصف منذ قليل لا يكادون يسكتون، رغم ما عليهم في كلامهم من حرج، أصبحوا صامتين لا يتكلمون، ولا يتحركون..

بل لكأن السماء شاركت الناس حدادهم وصمتهم، فالعصافير التي كانت من قبل تزقزق مرحة نشوى، وهي عائدة إلى أعشاشها في أشجار «الزنزلخت» أو بين الأحجار في جدران الدكاكين، قد خرست أو هربت فنحن لا نراها تطير ولا نسمعها تزقزق.

لم نكد نسمع إلا ذلك الدويّ العاصف يصم الآذان، فإذا سكت بين حين وحين سمعنا طقطقة حوافر الجياد تضرب الأرض الحجرية في قوة وخيلاء.

وأقبل الجيش الفرنسي من بعيد، كنا سمعنا أن معركة نشبت في العاصي بين الثوار والفرنسيين، وأن بعض الثوار استطاعوا أن يفروا لأن عمر تطوع لتغطية انسحابهم وضحى بروحه في سبيلهم وأن المعركة دارت صباح ذلك اليوم.

إذن فقد كان من الممكن أن يعود الجيش المنتصر عند الظهر أو العصر ولكنهُ لم يختر إلا هذا الوقت قبيل غروب الشمس حين تزدحم الشوارع بالناس وهم يعودون، إلى بيوتهم أو يسيرون في شارع حمص الوحيد.

وأقبل الجيش الفرنسي من بعيد، كانت الأعلام ترفرف كثيرة الألوان مختلفة الحجوم، على قضبانها النحاسية وقد بدت رؤوس تلك القضبان أكثر لمعانا في وهج الشمس الغاربة، وجاءت فرقة من الخيالة الشراكسة تلبس ثيابها السود، وتجرد سيوفها البيض، وخيولها من تحتها تمشي في بطر وتتبختر كأنما هي تحمل بعض ما في نفوس فرسانها من كبرياء.

ورأينا وراء هذه الفرقة فرقة أخرى من الفرسان، ولكن بين الفرقتين شقة واسعة ومسافة بعيدة فلم هذه المسافة وما الذي يفصل بين الفرقتين؟

كان يفصل بين الفرقتين المنتصرتين جحش هزيل أسود ليس على ظهره جلال، وكان هذا الجحش يمشي وقد ألقي على

ظهره الشهيد القتيل..

كان رأسه يتدلى في جانب وتتدلى على حافتي رأسه يداه وكانت رجلاه تتدليان في جانب آخر، وكان مبطوحا على بطنه فوق ظهر هذا الحمار.

كانت رجلاه حافيتين، وقد تدلى من إحداهما جورب أصفر يحاول أن يسقط ولكن الدماء المتجمدة على الرجل كانت على ماأظن، تمنع سقوط هذا الجورب المرقع.

ولم أر رأس الشهيد القتيل فقد كان في الجانب الثاني من الشارع ولكني تصورته: كان يتدلى ويترجح ، وقد علت شعره طبقة من الدم المتخثر، وقد علت هذه الطبقة من الدم طبقة أخرى من الطين والتراب.

وهذا الرأس يقفز إلى أعلى ثم يهبط فيضرب بطن الحمار، وخيل إليّ أن عمر يريد أن يقوم، ولكنه ويا للأسف لا يستطيع.

ورأيت يديه وقد تدلتا على حافتي وجهه صفراوين نحيلتين كانتا تقفزان حيناً، وتضربان أحجار الأرض الناتئة حينا، وقد تكسرت أظافرهما ودميت أناملهما وهي تخط على أرض الشارع خطين طويلين متعرجين، كانت تكتب لنا كتابا طالما قرأناه، وكانت سترة القتيل الشهيد تنثني ممزقة من عند

كتفيه، فنرى قطعة من قميصه المقلم وسرواله الأسود.

كنا ننتظر أن نرى مائة شهيد أو يزيدون فمثل هذا الاحتفال المهيب لا يمكن أن يكون لقتيل واحد، يلقى على حمار أعجف هزيل، ولكنا لم نر إلا عمر ، لم يكد .يمر بنا صامتا، وهو على صمته ناطق ، ميتا، وهو على موته حي، ضعيفا، وهو على ضعفه مارد جبار، حتى أتبعناه أنظارنا، ولم نكد نرى من ورائه ذلك الجيش الاخر من الفرسان ، ثم جيشا ثالثا من المشاة ، وظللنا نراه حتى حجبت الخيل أقدام الحمار عن عيوننا وهي أقدام كنا نحس أنها تغرس في قلوبنا ثم تنتزع من قلوبنا ثم تغرس في قلوبنا من جديد .

وبقي الناس أمدا طويلا ذاهلين صامتين، وتفرقوا ذاهلين صامتين: وجلست على الرصيف أفكر ولا أبكي. أفكر في هذا الثائر الذي كان كتلة من اندفاع جامح ونشاط واثب، يتحول إلى جثة من دم خاثر ولحم يابس وعظام متكسرة تتمدد فوق ظهر حمار، وذكرت أنه كان لي أخا وصديقا، وأن هذا الأخ الصديق قد مات وأن لست بعده مستطيعا أن ألمس بندقيته أو أن أقبض على خنجره.

كان آخر من قدمته سورية على مذبح الحرية في ثورة سلطان وقضى موته على آخر أمل في نجاح الثورة، رأيت هذا

الأمل الذي كان قويا عنيفا يموت ويغرب في نفسي إلى الأبد كما كانت تغرب هذه الشمس بين الغيوم السود ولعلها أيضا تغرب إلى الأبد ، ورأيت العاصي وقد طفت على وجهه جثة عمر الشهيد ، فاعتز حينا وزها ثم ارتد خاسئا حسيرا وجرى عبدا ذليلا ليموت في البحر الأبيض من كمد وأسى، وليموت وهو يروي للبحر قصة الشعب السوري الصغير العظيم.

وأظلم الليل ولم تشعل مصابيح الدكاكين، وأغلقت أكثر الحوانيت أبوابها ومضى أصحابها إلى بيوتهم يحملون مع خبز المساء إلى أطفالهم خزي العبودية وعار الذل.

واستيقظت على صوت عامل البلدية ينزل مصباح الشارع من ساريته يريد أن يشعله.

ومضيت إلى البيت.

ولست أدري بعد ذلك ما كان.

القديسة العارية

نحن في عام ١٩٢٧، والثورة السورية المجيدة تلفظ آخر ما في سراجها من ومضات قبل أن تنطفىء إلى أمد ما،والثوار الذين لم تأكلهم نيران الثورة في البطاح والأودية والجبال مايزالون بين حين وحين يحركون رمادها في المدن، فتنبعث منه شرارة بعد شرارة، نورها روح شهيد يهوي إثر شهيد ولكن النار الكبرى تبقى خامدة، ونحن في حمص نحمي بأحداق عيوننا بقايا الثوار في المدينة، كانوا عشرين أو يزيدون، إذا انتصف بهم الليل تسلقوا الجدران كالشياطين وقفزوا على السطوح كالهررة ونزلوا ضيوفا كراما على بيت كريم، فباتوا الليلة أو الليلتين ينامون وبنادقهم تتمدد إلى جانبهم وخناجرهم في أيديهم وكتاب الله فوق رؤوسهم، حتى إذا انقضت الليلة أو الليلتان عادوا مرة أخرى يتسلقون الجدران كالشياطين ويقفزون فوق السطوح كالهررة ويدخلون بيتا آخر جديدا ضيوفا كراما على رب بيت كريم. ولو شئنا أن نحصي البيوت التي دخلوها في حمص لم نستطع لها حصرا. يخيل إلي أنهم لم يتركوا بيتا لم

يـزوروه فقـد امتـدت مقـاومتهـم وحصـارهـم سنتيـن أو ثـلاث سنوات، وفرنسا بكل قواها وجواسيسها عاجزة عن أن تجد هؤلاء الثوار، كانت المدينة كلها تؤويهم وتحميهم.

وسد الفرنسيون منافذ الشوارع، وأقاموا جدرانا حصينة عالية في كل زقاق ونشروا دوريات في كل طريق وفرضوا الحصار على أحياء المدينة.

كانوا يطوقون حيا بعد حي ثم يرسلون جنودهم إلى الأزقة زقاقا بعد زقاق وإلى البيوت بيتا بعد بيت، وإلى الغرف غرفة بعد غرفة، ينتزعون الرجال ثم يمضون بهم إلى ظاهر المدينة ويفتشونهم واحدا بعد واحد ويدققون في ملامحهم رجلا بعد رجل يريدون أن يخرجوا من تحت ثيابهم أولئك الثوار فلا يعثرون على واحد منهم. ويتركون الناس في البرية في الشتاء والصيف في الحر والقر حتى الليل ثم يطلقون سراحهم والعصا على جنوبهم والأحذية في أقفيتهم وهم لا يتكلمون لكأن المدينة أصبحت مقبرة.

أما النساء فيتركونهن في البيوت بعد أن يفتشوهن امرأة بعد امرأة وربما انتزعوا من هذه سوارها إذا راقهم ومن تلك قرطها إذا أعجبهم وكأنما بقي في ذاكرتي أن سوارا في ساعد امرأة عسر عليهم انتزاعه فقطعوا يد المرأة وأخذوه.. كانوا

يحاولون أن يجدوا تحت ثياب النساء أولئك الرجال فلا يجدون أحدا..

والمدينة الصابرة تهزأ بالمستعمرين وتخفي الثائرين في أحداق عيونها الجميلة يتسلقون الجدران كالشياطين، ويقفزون على السطوح كالهرة وينزلون في بيوتهم ـ وحمص كلها بيت لهم ـ بيتا بعد بيت.

كان سحاب آذار يغطي المدينة ومطره يغمر أرضها، صفوف متلاحقة متراصة من الماء لا يكاد السائر فيها يتبين ما أمامه، والسيول تجري في الشوارع وتندفع إلى المجاري. والمجاري تغص بها فتقذفها إلى الشوارع ينابيع فتعود تجري وتتبختر من رصيف إلى رصيف.

حتى إذا بلغت مجرىٰ العاصي لم تجد فيه على سعته مكانا لها فيه فتعاتبه وتندفع حولها ويقول لها في كبرياء : ومن قال لك تعالي.. اذهبي إن شئت إلى الصحراء وتغضب السيول فتخترق مجراه وتقذف إلى جوفه بالوحل والطين وجذوع الأشجار والحصى والأحجار ويزمجر العاصي وينتفخ صدره غضبا ويبتلع السيول سيلا بعد سيل..

حتى سطوح المنازل أدركتها الغيرة من السماء فأقسمت أن تكون سماء ثانية وجعلت تكف، تتجمع قطرات الماء في

السقف ثم تتمطى وتتثاءب ثم تتساقط فترن في طاسات النحاس التي وضعت تحتها أولا ثم تزداد القطرات فلا يسمع لها رنين ولكنها تسقط فيتناثر على الأرض كثيرها ويبقى في الطاس قليلها ويسيطر على الغرفة جو من الرطوبة تختلط بها حرارة الجمرات في الموقد فيكاد يكون خانقا.

في إحدى هذه الغرف كان يأوي الثائر (نظير) كان قد تخلف عن إخوانه في مهمة وبقي في هذه الغرفة التي كانت هي وحدها كل ما في هذه الدار.

وكانت ربة الدار أو على الأصح ربة الغرفة تضع على رأسها ملاءتها وتطبخ طعامها في العتبة تتقي في العتبة وكف السقف، وإزعاج الضيف، وكاد الماء يغلي وأوشكت أن تضع العدس.

لقد كان غذاؤها اليوم فخما، مجدرة برغل بالسمن، لا بالزيت أليس الضيف عزيزا..

وفجأة طقطق السقف وكاد ينكسر وسمعت المرأة فوقه وطء الأقدام وتحركت القصبات في السقف وأنّت وهطلت منها قطرات غزيرة وأسرع إلى بندقيته وقال للمرأة: عسكر اخرجي ياأختي قبل أن يفتحوا باب الدار ويدخلوا الغرفة والأمر لله..

وقالت المرأة في هدوء: بل اختبىء أنت في هذه الخزانة في الحائط وخذ حذرك ودع الأمر لي وبدأت المرأة تخلع ثيابها في

هدوء وتضعها إلى جانبها في ترتيب. لم تشعر أن في الغرفة رجلا غريبا، ولم يشعر الرجل أن في الغرفة امرأة تتعرى كأن الأمر لايعدو حدود عملية عسكرية.

واستلقى الرجل في خزانة الحائط وصوب بندقيته وجعل ينتظر، وهوى باب الدار وتناثر قطعا قطعا ودخل البيت جنود فرنسيون وسنغاليون وشاشان ملؤوا ساحة الدار فلم يجدوا إلا غرفة واحدة فدفعوا بابها..

كانت المرأة تغتسل رغوة الصابون تغطي جسدها كله وفي يدها مشط تسرح به شعرها الأسود الطويل. وفتح الباب ومسحت المرأة بيديها عينيها وصاحت في دهشة: من؟ عيب حرام، مالكم عرض، مالكم دين ـ وأطل الضابط الفرنسي يبصبص ورأى المرأة العارية وقد سترت بشيء من ثيابها جسدها وسالت رغوة الصابون فاختلطت بماء المطر وقال: فطمة ـ فطمة ـ لا يمكن أن يلجأ الثوار إلى هذا البيت الفقير وإلى هذه الغرفة الصغيرة الوحيدة التي تغتسل بها امرأة.. كذب الجاسوس..

لم يدخل الغرفة ولم يسأل وقال لجنوده : هيا..

وتضاحك الجنود السنغال ومضوا يجرون أرجلهم جرا ويصيحون : فطمة ، فطمة ، وغص جنود الشاشان بريقهم، ما

أكثر من له منهم أم أو أخت تدعى فطمة وأسرعوا في الخروج..

أغلقت المرأة الباب وغسلت وجهها ولبست ثيابها وعاد السقف يطقطق والأقدام الثقيلة تدب فوقه دبيبا وسكت الوكف في السقف..

وقالت المرأة: الله يلعنهم ضيعوا علينا الماء الساخن وأخروا طبخ المجدرة، وأنت جوعان، وضحك الثائر وقال: احمدي ربك لم يجيئوا بعد وضع العدس وإلا فقد كان عليك أن تغتسلي بالمجدرة.

سمع الزوج وهو في جورة النول أن الفرنسيين داهموا بيته فلم يتحرك من مكانه حتى لايثير الشكوك، حتى إذا حل المساء وكان قد عرف كل شيء عاد إلى بيته وهوى على قدمي زوجته يشبعهما لثما وتقبيلا وهو يتمتم:

الله يستر عرضك مثل ما سترت عرضي..

وحكت له القديسة العارية ما حدث تفصيلا، وضحكت حمص حين سمعت الحادثة، لقد استطاعت أن تحمي أبناءها الثائرين بحيلة إحدى بناتها القديسات العاريات..

العلم العربي

كان بيت الشيخ سعيد في حركة متصلة لا تنقطع، كل شيء فيه ينتقل من غرفة إلى غرفة، ومن مكان إلى مكان: الأثاث والنساء والأطفال والرجال. حتى القطط كانت تدخل الغرف التي لم يكن مباحا لها أن تدخلها. وتجلس على المقاعد التي كان محرما أن تجلس عليها، ثم لا تلبث أن تخرج مع الخارجين والخارجات. وقد فقدت كثيرا من هدوئها ورزانتها وحكمتها.

بل لقد كان الأثاث نفسه يضج ويصرخ لطول مايعبث به العابثون. وينقلونه من غرفة إلى غرفة، ومن صدر القاعة إلى عتبتها. ومن يمينها إلى شمالها. وهو يتعجب لأمر أصحابه. ولكنه لايملك لأمره ضرا ولا نفعا.

بل إن أبواب الغرف ونوافذها كانت تقتلع من لوالبها الأزلية وتخلع من أجرانها الأبدية، وترسل إلى باحة الدار فتستلقي هناك لتغتسل أو لتدهن. ثم لا تلبث أن تنظر إلى نفسها فإذا ألوانها قد انقلبت فأصبحت خضرا وكانت صفرا

أو أصبحت بيضا وكانت حمرا. حتى الحيطان التي ظنت أنها خالدة لا تزول والتي صارت دفاتر للشياطين وحدهم، بل للأولاد مع الشياطين، فلا نكاد نجد فيها فيما تصل إليه أيدي الصغار مكانا خاليا لحرف واحد، حتى هذه الحيطان قد قشرت قشرا عنيفا وبدلت بألوانها القديمة الحائلة ألوانا جديدة قشيبة.

بل إن الشمس نفسها، التي كانت تقرع أرض الدار وجدران الدار وغرف الدار القبلية منذ الصباح حتى المساء، فكأنها عاشق لا يفارق. هذه الشمس حجبت عن الدار كلها بسقف من قماش يمتد على طول الجدران ويثبت عليها بحبال وأمراس..

كان البيت يحتفل بعرس ابنه البكر (أنيس) وكان ابنه هذا معلما في قرية (الغنطو) على ضفاف العاصي قرب حمص. وكان فوق ذلك سياسيا. فقد جاء ذات يوم قبيل العرس إلى حمص، ولم يشغله عرسه عن الاهتمام بأمر آخر رآه أكثر خطرا. طلب من الدهان أن يأتيه بعلب ملونة من «الدهان الزيتي» وطلب منه أن تكون ألوان هذا الدهان أربعة: الأبيض والأحمر والأسود والأخضر.. وجاءت علب الدهان كما طلب، واجتمع الأطفال والنساء في أرض الدار ينظرون إلى القاعة الكبرى في

وسط الدار، هذه القاعة التي كانوا يسمونها «الكعبة» لأنه لايدخلها إلا المطهرون. وصعد المعلم فخط على الجدار في صدر القاعة خطوطا، وصعد الدهان فرسم في صدر القاعة «العلم العربي» وكتب المعلم تحت العلم بخطه الجميل بيتا جميلا:

بيض صنائعنا ، سود وقائعنا

خضر مرابعنا ، حمر مواضينا

ونام الأطفال في ذلك اليوم العجيب على صورة هذا العلم العجيب، يرونه أول مرة، ويعجبون بألوانه الزاهية أول مرة ويحبونه أول مرة.

كانوا يتصورون أن ليس في العالم كله إلا ذلك العلم الذي يخفق فوق دار المستشار الفرنسي. هذا العلم الذي كانوا إذا مروا به مالوا برؤوسهم عنه حتى لا يعلو ظله فوق الرؤوس ـ أو صرفوا أنظارهم عنه كيلا يروه. أو تنكبوا الطريق كلها حتى لا تقع أعينهم عليه.

أما الآن فقد أصبح لهم علم جديد ، علم عربي، هو لهم ولإخوانهم في العروبة، علم عربي يتصدر قاعة الدار وتحته كتبت كلمات لا يفهمون معناها، ولكنهم يحبونها ويعتقدون أنها يجب أن تكون جميلة وعظيمة..

منذ ذلك اليوم، أقام هذا العلم العربي في زاوية من زوايا قلوب هؤلاء الأطفال، وعندما كبروا وتعلموا أدركوا أن المبادىء الجديدة والأفكار الحديثة استطاعت أن تحيط بهذا العلم وأن تحتضنه. ولكنها لم تستطع أن تزحزحه من مكانه المنيع.

كان ذلك عام ١٩٢٤، ونشبت الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥، وألقى الفرنسيون المعلم العروس في غياهب السجون، وخافت أم المعلم السجين على أبنائها الآخرين، وقامت بينها وبين الشيخ معركة حامية انتصرت فيها المرأة كعادتها على الرجل. واضطر الأب الشيخ إلى أن يأتي بدهان جديد يدهن به ذلك العلم الجميل.

أمسكت الأم بالسلم وصعد الشيخ درجاتها، ووقف الأطفال واجمين: لماذا يمحو أبوهم هذا العلم الجميل الذي رسمه أخوهم السجين، وترقرقت عبرات في العيون، وظلت آثار العلم تتراءى أمدا طويلا تحت الدهان الثاني.

وظل الأطفال، بعد أن كبروا وأصبحوا رجالا، يتذكرون العلم العربي، ويحنون إليه ويحبونه، واختلطت ذكرياته الحلوة بذكريات أفراح العرس، العرس الأول الذي شهدته الدار، بذكريات المراهقين يبصبصون من ثقوب الستائر إلى الصبايا الجميلات. بذكريات الصغار يقلدون الكبار فيسرقون لفافة من

السجائر ثم يفرون إلى حوض الدار ويختبئون تحت الأشجار ويدخنون، إنهم الآن يتذكرون كل هذا، ثم يتذكرون العلم العربي، ويرون الآن أنه يرفرف مرة أخرى لا في صدر غرفة واحدة ولا في دار شيخ واحدة ، بل يرفرف في كل مكان من الوطن العربي الكبير • •

الميت الحي

وتنفس الصبح عند يوم آخر من أيام فرنسا السود ، ومن أيام سوريا البيض ، من أيام المستعمرين الذين ماتت ضمائرهم دون رصاص ، ومن أيام الثوار الذين عاشت أجسادهم رغم الرصاص ..

عبد المعين

كانت الساقية تجري وتصفق نشوى بضوء القمر، في تلك الليلة الساجية، ليلة الخميس، في السادس من شهر أيار عام ١٩٢٦ وكانت تقول لضفتيها، وقد غطتهما الأعشاب والأزهار بثياب عروس:

ـ ما أسعدني.. سأعود للعاصي عما قريب ـ أحمل إليه أغنيتي الصغيرة المهموسة، لأستمع إلى أغانيه الهادرة، فأنسى نفسي فيه، وأذهل عن أنغامي، ونمضي معا إلى البحر، وننسى معا أنا والعاصي أناشيدنا في آذي أمواجه الصاخبة.

وماست الأزهار على الضفتين وتغامزت: يا لك من ساقية مضحكة: إن حقل الفول في بستاننا هذا ينتظرك ليبتلعك.. كادت أزهاره تذبل وقرون الفول فيه تجف

وقالت الساقية:

– ولم لا أعطي نفسي؟ هل تظن أيها الشاطىء الأحمق أني لا أحب العطاء.. لو استطعت أن أبعث الحياة في الأرض الموات لكان ذلك عندي خيرا من أن أموت في البحر المالح، إن السواقي لا يمكن أن تنسى أن الله جعل من الماء كل شيء حي.

ومالت الساقية ذات اليمين وصبت ماءها في حقل الفول.. وتلقاها الحقل ينش نشيش الترحيب والفرح، وسمعت الساقية كلمات الترحيب والفرح فذهلت عن نفسها واستمرت في العطاء، تلك هي الأنشودة الخالدة، تحمل للمطر للساقية، للماء شكر الأرض العطشى ثناء الرمال الظماء.

وفجأة هوت في الساقية جثة إنسان.. وذعرت الساقية.. وارتدت مياهها إلى وراء، وقد سدت الجثة مجراها، وركب بعضها ظهر بعض، وأطلت غضبى لترى من عكر عليها صفاءها، وأوقف عطاءها، من كسر القمر، ليلة البدر، على صفحتها، من ردها عن حلمها القديم في العطاء المستمر، ثم ما

لبثت أن رأت ذلك الجسد، وقد سالت جراحه دما فحنت عليه تغسل جراحه وتشرب دمه ومضت إلى الحقل وقد أصبحت زهراء فشرب حقل الفول ماء ودما، دما ليس أقل جودا بنفسه من الماء، وماء ليس أقل عطاء من الدم. وسألت الساقية نفسها:

– أنا أعطي مائي لأصنع زهرا وعشبا وشجرا، فلماذا يعطي هذا الإنسان دمه؟ وسكتت الجثة فلم تجب وظلت تعطي دمها..

جرت المياه ثياب ذلك الإنسان الجريح، وجعلت تعبث بها تطويها وتنشرها، حتى كاد يكون ذلك الإنسان جزءا منها، غير غريب عنها، لولا أن رأسه ما يزال على الشاطىء، وما يزال الماء يجري بين سحره ونحره فيضمد جرحا عميقا.

وعادت الضفادع المذعورة إلى الساقية تنقنق أما السرطان العاقل فقد رأى من الحكمة ألا يقترب من هذا الضيف وظل متحجرا في سردابه.

وأصغى الليل والساقية والقمر طويلا إلى خفقات خافتة ما تزال تختلج في قلب هذا الإنسان الجريح، وأقسمت جميعا أن تنقذه، فأرسل الليل أحلى نسماته باردة عليلة فداعبت شعر الجريح، ودغدغت خديه، ورنقت النجوم عيونها: ما لهذا الليل

يصبح عاشقا ثم يعشق رجلا، وأمرت الساقية مياهها أن تبترد وأن تضمد جراح ضيفها جرحا بعد جرح.. وأن تكون نظيفة فلا تؤذي هذه الجراح، وأوفد القمر أشعته ناعمة ملساء فلمست وجه الرجل في رفق وقالت له:

ـ قم وافتح عينيك ، فما تزال في الدنيا حياة ، وما يزال في وطنك ثوار.. وحرك قدميك.. فما يليق بك أن تموت..

وظل (نظير) مستلقيا في الساقية لايتحرك، وظل وجهه يلمع صحيحا معافى في ضوء القمر.. ما أعدل القمر، إن نوره إذا انعكس على الوجوه السليمة بدت سقيمة، كأنه يقول لها لا يغرنك صحتك وسلامتك فعما قليل تهزلين وتشحبين، وإذا انعكس على الوجوه السقيمة بدت سليمة، كأنه يقول لها: لا تيأسي ، فعما قريب تصحين وتسلمين.

كاد الليل ينتصف، وهرعت من الغرب أسراب من الغيوم وتناثرت ها هنا وها هناك في السماء، ووقفت إحداها عند قرية في غربي حمص تدعى (خربة غازي) وراعها أن تشهد منظرا عجبا، وفاضت بالمطر على تل هناك يدعى قاموع عليان، فمسحت دماء عشرة شهداء، ثم حملت الدماء فصبتها في حفرة تتكدس فيها جثثهم، ولكنها لم تجد في الحفرة إلا تسع جثث، فكيف وجدت إذن دماء عشرة شهداء وملأت الحفرة بحثا عن

الجثة العاشرة فلما لم تجد لها أثرا.. تقشعت الغمامة وفي قلبها حسرة وحيرة..

كانت تلك الجثة العاشرة التي بحثت عنها الغمامة في الحفرة فلم تجدها هي هذه الجثة التي ترتمي على بعد عشرة كيلو مترات من الحفرة في ساقية «الغمايا» التي يحلو لنا أحيانا أن ندللها فنقول لها: حولها تتفتل الصبايا - والتي يحلو لنا أحيانا أن نؤذيها فنقول لها: حولها تتفتل الحيايا. كانت تلك الجثة التي تتمدد في الساقية جثة «نظير النشيواتي».

ولبى نظير نداء الليل وسمع وشوشات الساقية وأطاع أمر القمر فعاش ولم يمت، وتحرك، وتحركت ذاكرته فجعل يسأل نفسه: أين أنا؟ مالي هنا؟ إذن فأنا حي، لم أمت.. أين رفاقي وجعل نظير يتذكر.

كانت الشمس تميل إلى الغروب، وقد اصفر وجهها، فكأنها تساق إلى الموت، وكان هو وتسعة من رفاقه المجاهدين يساقون أيضا إلى الموت، ولكن وجوههم لم تكن صفرا، بل لعل حمرة الغضب ممتزجة بنضارة الشباب، كانت تعلو وجوه هؤلاء الثوار، الذين يساقون إلى الموت قبل أن يقضوا حق بلادهم عليهم، ولا حق شبابهم.

قال له سعيد الشهلا، وقد جلس على التراب، وجعل

يستنشق التراب:

ـ يا نظير، لكأني أشم في هذا التراب رائحة دمي..

وقال نظير:

ـ ما أطيب رائحة التراب يا سعيد، ولكني أوثر أن أنام قليلا ثم أستيقظ وسمع الحاج محمد المغربي حديثهما، وهو العالم بكل شيء فقال:

ـ من هذا التراب ، ومن هذه الأرض جبلنا، ونحن لذلك سنموت فيها، إن الإنسان لا يموت إلا في الأرض التي خلق من ترابها ..

وقال نظير:

ـ يخيل إلى أن هذه الأرض ليست قبري .. كأني لا أشم فيها رائحتي وتدخل الحاج محمد المغربي مرة أخرى:

ـ صلوا على النبي يا أولاد..

وأغمي على نظير مرة أخرى، وهو في الساقية، وعاد الليل يمسح خديه بمنديل النسيم، وعاد القمر يقبل شفتيه بأشعته، وجعلت كلها تقول له:

ـ قم فافتح عينيك، قم واستيقظ، لا يجوز لك أن تموت، ما يزال في وطنك من يدنس ترابه، ويستعبد شعبه..

واستيقظ نظير وفتح عينيه الكبيرتين، وجعل يتحسس

جراحه.. لكأنه لم يجرح قط، بل هناك آثار جراح قديمة قديمة، لكأنها اندملت منذ سنين، كأنه لا يذكرها.

وعاد نظير يتذكر:

كانت أيدي المجاهدين العشرة مغلولة إلى ظهورهم ، وكان الفرنسيون يحيطون بهم من كل جانب، وأوقفهم الضابط واحدا إلى جنب واحد، ولم يطلب من الجنود قتلهم، فقد أراد أن يستأثر وحده بهذا الشرف ، وتحسس قلمه في جيبه:

سيكتب اليوم إلى خطيبته في باريس:

قتلت اليوم يا جانيت عشرة ثوار من العرب، كم كنت شجاعا..

سأعود إليك بأوسمة كثيرة..

وملأ مسدسه وأمسك بقائمة الثائرين يدعوهم بأسمائهم واحدا بعد واحد.. وترامى إليه صوت حسين جواد يقول لعبد الكريم عاصي:

ـ ليتني كنت أول من يدعى إلى القتل، يعز علي أن أبقى بعدكم. وقال له عبد الكريم:

ـ يا الله، ياسيدي، كلها دقيقة.

وسمع الحاج محمد المغربي حديثهما فتدخل، وهو العالم بكل شيء:

ـ لا تختلفوا .. صلوا على النبي يا أولاد..

ولم يتم الحاج محمد نصائحه وصاح الفرنسي ينادي: نظير النشواتي، بالفرنسية..

كان نظير آخر من دعي إلى القتل فأجاب، ومشى وعيناه شاردتان إلى الأفق .. كانت حمص هناك واضحة من فوق هذا التل ، ومآذن مسجد خالد بن الوليد ترتفع شامخة في كبرياء، ووقف على رؤوس أصابعه يريد أن يرى باب تدمر.. ولكن حيه الحبيب كان مختفيا وراء القلعة ، لعل أمه تخبز له على التنور.. ما أطيب الخبز التنوري ياأمي، أنا مشتاق إليه..

ودوى الرصاص، وأحس نظير أنه سقط على الأرض، وأن عنقه تؤلمه، وأن نبعا من الدماء قد تفجر منه، فغسل جسده وطرش الأرض حوله، وأنه يقع فتختفي حمص من عينيه، ومآذن خالد ، والقلعة، وباب تدمر، وأمه وتنورها، وأرغفتها الساخنة، ثم سمع أسماء إخوانه ثم خيل إليه أنه يسمع طلقات صماء.. ثم أحس برصاصة أخرى تنغرز في جسده، لعلها رصاصة الرحمة.. وأمسك به واحد من رجليه ثم جره، ثم ألقى به في حفرة وسقط فوق جثث رفاقه.. لكأن واحدا منهم يقبله ثم لم يحس بشيء..

وأغمي على نظير مرة أخرى..

وغضب الليل، وأمر النسيم فأصبح ريحا عاتية ، وغضبت

الساقية ، فكفت عن سقاية حقل الفول وانتفخت غيظا تريد أن تغرقه ، وغضب القمر، وأصبح وجه نظير كانه وجه مريض.. إنه يوشك أن يكون صحيحا..

وأفاق وجعل يتذكر:

ما أزال حيا.. إذن فهذه الأرض ليست قبره.. قم يا نظير وجعل يتحسس جثث رفاقه، وجعل يوقظهم كانت وجوههم في ضوء القمر زاهرة زاهية كأنها وجوه نيام.. قم ياسعيد.. قم يا عبد الكريم، قم يا حاج محمد.. قوموا نهرب ولم يتحرك منهم أحد، وخيل إليه أنه هو أيضا يكاد لا يتحرك وبدأ يزحف..

هذه قرية أم مارتين.. ورأيت امرأة وقلت لها:

ـ الله يستر عليك ياأختي، فكي قيدي الله يستر عليك.

ولم تخف المرأة، أخت الرجال، فاقتربت مني:

ـ أأنت ميت؟ أأنت شهيد..؟

كانت المرأة تؤمن بالرجعة وتدين بالتناسخ.. وفكت له وثاقه..

منذ أيام مات لها قط أسود، قط ذو أرواح سبعة.. قد يكون بعث مرة أخرى في جسد هذا الشهيد وقال لها:

ـ خاطرك يا أختي.. استري على ما شفت..

ومضى.. وأحس نظير أنه يكاد يغرق، وأن الريح تكاد تقتلع شعره، وأن القمر كاد يغرب، فنهض على قدميه، وهربت الضفادع، وزاد السرطان إيغالا في جحره، وتدفقت مياه الساقية كما كانت تتدفق، ومشى سكران، سكران من نشوة الحياة، وجعل يضرب الأرض بقدميه ويصيح:

ـ أنا حي.. أنا حي.. أنا حي..

وأخرج المصحف من صدره، وجعل يقبله، ومشى إلى بلده..

كانت تلك الدار من لبن وقصب، تقبع في باب تدمر، وتغص بالنساء الغاديات الرائحات.. وكانت أم نظير تصيح:

ـ يا ليتهم تركوا لي جثة ولدي يا ليته كان له قبر مثل قبور الناس..

ونادت ابنها جميلا للمرة المائة:

ـ يا جميل .. ألم تجد جثة نظير..

وقال جميل للمرة المائة:

ـ لا يا أمي.. ذهبت مع الناس الذين ذهبوا ليأتوا بجثث أولادهم لأجيء بجثة أخي فلم أجد جثته، وعدت مع الناس الذين يحملون جثث موتاهم..

وولولت الأم المفجوعة وصاحت:

ـ أحرقوه.. أغرقوه.. ما كفاهم أنهم قتلوه.. أسفي على شبابه، أسفي على طوله، أسفي على شواربه..

وفجأة دخل نظير بيته بقامته الفارعة، وشبابه الريان وهو يفتل شاربيه ويصيح:

ـ بلا عياط يا أمي..

ورأى الناس فيما رأوا تلك الليلة الرهيبة.. ميتا يبعث حيا، وجثة هامدة تنقلب جسدا ذا روح..

وتنفس الصبح عن يوم آخر من أيام فرنسا السود ومن أيام سورية العربية البيض، من أيام المستعمرين الذين ماتت ضمائرهم دون رصاص، ومن أيام الثوار الذين عاشت أجسادهم رغم الرصاص.

وظل الليل والساقية والقمر تذكر أمدا طويلا، ذلك الجريح الذي أهدت إليه ذات يوم أحلى أنسامها وأنغامها وأشعتها..

ملاحظة:

استعنت على تواريخ الحادثة وتفصيلاتها بتاريخ الثورات السورية للأستاذ المرحوم أدهم الجندي..

رشـــيد في المحكمة

كنت طفلا في الثامنة من عمري عام ١٩٢٥، حين رأيتني أحمل رزمة من خبز وأركض بساقي القصيرتين، وأتعثر مرارا بحجارة حمص السود التي كانت ترصف شوارعها في تلك الأيام. ثم أنهض وأسرع وراء حمال يحمل الطعام من بيتنا في جورة الشياح إلى سجن حمص.

كان الفرنسيون قد اعتقلوا عددا غير قليل من الشباب الوطني وزجوهم في السجن خوفا من التحاقهم بثورة جبل الدروز أو من تحريضهم للرجال على الالتحاق بها، وكان من هؤلاء الشباب أخي أنيس وابن عمي رشيد.

كان السجن في الطرف الغربي من الثكنة الفرنسية العسكرية، وكانت هذه الثكنة تمتد من فندق رغدان اليوم إلى مقهى النصر، وقد قدت بين أحجارها الكبيرة عدة دكاكين، وكانت ساقية حمص تجري خلف شارع دار الحكومة وتنتهي أمام شارع بونسو ـ شارع الخمارات ـ بمنهل واطىء عريض، يشرب منه الناس والأنعام معا، وتغوص فيه العربات ذات

الخيول، فتستحم الخيول وتنظف العربات ثم تخرج من الساقية، وهي تقطر ماء، وكنا ـ نحن الأطفال ـ نغتنم فرصة فراغ الساقية أحيانا فنسبح فيها فترات طويلات.. وتنعطف الساقية بعد المنهل نحو الشمال إلى شارع بونسو ويهبط ماؤها هبوطا عنيفا ليدير طاحونة حجرية ثم يخرج منها ليسقي بساتين جورة الشياح.

كان الفرنسيون أو كان السجان يسمح للمساجين بجلب الطعام من بيوتهم، فكان على كل سجين أن يأتي بالطعام من بيته يوما من الأيام، ويبقى يأكل من زاد رفاقه حتى يأتي دوره من جديد، وكان هذا اليوم يوم أخي أنيس في جلب الطعام.

طرق الحمال الباب، فتلقاه السجان بالترحاب، فهو يعرف أن نصيبه ونصيب أسرته من الطعام وفيران أولا، وهو يعرف سلفا أن الطعام لذيذ ثانيا، وانتقى السجان من حزمة من المفاتيح الكبيرة التي ترن وتصلصل على ساقه مفتاحا فتح به غرفة السجناء، وتسارع السجناء إلى صدر الطعام ينزلونه عن رأس الحمال، وإلى رزمة الخبز يحملونها من أيدي الطفل الحمراوين من حرارة الخبز ومن برد الطريق، ثم هرعوا إلي يقبلونني واحدا بعد واحد، وكنت كلما قبلني سجين أنتزع القبلة من خدي وأرميها على الأرض فيضحك السجناء، فيعودون

إلى تقبيلي وأعود إلى انتزاع قبلاتهم ورميها على الأرض وهم يتضاحكون.

لقد علمونا أننا لايجوز أن نتقبل قبلات الرجال، وأننا إذا قبلنا أحد وجب علينا أن ننتزع قبلته من خدنا، وأن نرميها على الأرض، فمن العار أن يقبل الرجال الرجال، أما النساء فلا بأس - أن تبقى قبلاتهن الناعمة على خدودنا الناعمة، فليس من العيب أن يحتفظ الرجال بقبلات النساء..

قال أحد السجناء: تعالوا نأكل ما دام الطعام ساخنا..

ورد على اقتراحه كل السجناء فورا قالوا: كلا، بل سنؤجل الأكل حتى يعود رشيد من المحكمة..

كان ذلك اليوم يوم محاكمة ابن عمي رشيد في المحكمة العسكرية الفرنسية وأطاع من أراد أن يأكل قرار الأكثرية واكتفى بانتزاع كسرة من الخبز وجعل يأكلها في هدوء..

جاء جنديان لمرافقة رشيد إلى المحكمة وودعه السجناء في حفاوة وقبلوه وأوصوه بالتجلد والصبر..

كانت دار الحكومة، وفيها المحكمة تقوم في موضع بناية الأيتام اليوم، قرب السجن، أمام البلدية، وكانت تحيط بها حديقة صغيرة مهملة لها سور من قضبان الحديد، أما غرفها فتحتل جوانب الباحة الأربعة، وتقبع غرفة النظارة في طرفها

الجنوبي..

أردت أن لا تفوتني رؤية هذه المحاكمة: منظر رشيد يساق إلى المحكمة وحاول أخي أنيس أن يمنعني فأسرعت إلى الهرب.

مشى رشيد بين الجنديين، مغلول اليدين، يفكر في نوع العقوبة التي سيفرضها عليه المستعمرون الذين لا يرحمون.

وقف عند طرف الشارع المؤدي إلى دار الحكومة، عمي، أبو رشيد، وكنت أعرفه شيخا كئيبا متجهما، ماظفرت منه يوما من الأيام بعيدية في عيد من الأعياد والعيدية مصدر فرح للأطفال ومعيار حكمهم على الرجال، سواء أكانت العيدية ثمينة أم زهيدة.

رأى الشيخ ابنه رشيدا يسير إلى المحكمة، وهو مطأطىء الرأس، تظهر عليه علائم التوجس، والتفكير، وجمع الأب لعابه في فمه ثم أطلقه دفعة واحدة في وجه ابنه، وصرخ بصوت رهيب:

ـ رشيد ، يا كلب، ارفع رأسك، فيه غير الموت..؟

وأطاع رشيد أباه، ومشى إلى المحكمة مرفوع الرأس، وهو يمسح بيديه المغلولتين بقايا بصقة أبيه.

ألهتني دار الحكومة وبركة الماء فيها وأزهار الحديقة في باحتها، وغرف الموظفين الذين كنت أنظر إليهم من النوافذ،

وهم مكبون على الأوراق، يقلبونها أو يكتبون، ألهتني عن السجين وعن المحكمة، ولعبت في الباحة حتى ضجرت فعدت إلى البيت..

خمسة وستون عاما مضت على هذه الحادثة، وما أزال أرى ذلك الوالد العنيف يبصق في وجه ابنه الذي ظن أنه ضعيف، وما أزال أسمع صوته القوي يدوي في أذني:

ـ رشيد ، يا كلب ، ارفع رأسك، فيه غير الموت..؟

صحوة ضمير

عجيب شأن الإنسان، يسمو حتى يدرك مقام الملائكة، وينحط حتى يبلغ درك الشيطان..

هذا ماكان يحدث لجاسوس كان في خدمة فرنسا في حمص، أثناء الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥.

كان يدل على الثوار ويلاحقهم ويسلمهم لسادته الفرنسيين يدا بيد فتقتلهم أو تنفيهم أو تلقي بهم في غيابات السجون، وكان أحيانا يصحو ضميره فينبه الثوار إلى الخطر المحدق بهم، ويذكر لهم مواعيد الحملات الفرنسية عليهم حتى يتواروا عن الأنظار، وهذه صحوة من ضمير هذا الجاسوس أسجلها في هذه القصة.

في كتاب (مكسيم غوركي) ـ مذكرات جاسوس ـ يحلل الكاتب نفسية أحد جواسيس القيصر تحليلا دقيقا، وأعتقد أن غوركي في هذا التحليل أدرك مستوى (دوستويفسكي) ومن ظن أني أبالغ فما عليه إلا أن يقرأ هذا الكتاب في ترجمته العربية أو في أصله الروسي إن استطاع: (مذكرات جاسوس) ترجمة

عبد المعين الملوحي ـ بيروت ـ دار القلم ـ عام ١٩٥٤.

كان هذا الجاسوس في شبابه تقدميا وثائرا ، ثم أغواه رئيس الشرطة فتحول إلى جاسوس خطير، فلما انتصرت ثورة عام ١٩١٧ انكشف أمره وقبض عليه ووضع في غرفة، وأعطي ورقا وقلما ، وقيل له: اكتب اعترافاتك، فكتب هذه المذكرات ونحن نقتطف منها مايلي:

١ـ في الفقرة الأولى يتحدث عن النفس الإنسانية وما فيها من أغوار فيقول: إن في النفس الإنسانية لججا وأغوارا عميقة لا تستطيع الكتب أن تملأها .. ص ٤٦.

٢ ـ وفي الفقرة الثانية يتحدث عن الازدواج في نفسية الإنسان فيقول: في نفسي رجلان اثنان يعيشان معا، ثم يصطرعان ولا يتفقان أبدا.. تلك هي القضية .. ص ٤.

٣ ـ ويريد الجاسوس أن يصلح نفسه ويستقيم ولكنه لا يستطيع:

كنت أصفع نفسي صفعا وأرهقها إرهاقا لأوقظ فيها شعورا يحكم علي ويعلن لي في وضوح:

إنك مجرم .. إنك خائن..

كيف يمكن أن ينتقل المرء من البطولة إلى النذالة في مثل هذه السهولة. ص ٥٠-٥١.

٤- ومع ذلك فقد كان يوقع بالرفاق أحيانا وينقذهم أحيانا.

.. نعم .. لقد كنت وأنا موظف في الأمن العام أجيز لنفسي أن أقدم لونا من ألوان السرور إلى الرفاق، فرار من السجن، هرب من المنفى، تنظيم للمطابع السرية، ولمستودعات الكتب الحزبية والمنشورات الثورية.. ولم أفعل ذلك لأخدع الرفاق.. كلا لم أفعل ذلك إلا هكذا،وفي بساطة وحبا في التنويع والتلوين، لقد كنت أساعدهم يدفعني إلى ذلك هواي، وفضولي على الخصوص.. ص ٦١.

٥- كان أكثر ما يسره أن يخدع الناس: الحكومة والثوار في آن واحد: طريف أن تستطيع خداع الناس، ابليس وحده يمكن أن يتذوق مثل هذه الطرافة.. ص ٥٩.

٦- ولعل أقسى، وربما أصدق ما قاله هذا الجاسوس في مذكراته:

نعم إن عادة الحياة في شرف هي ما ينقص الإنسان.. ص ٥٤.

وإليكم بعد هذا التمهيد الذي لابد منه،قصتنا مع أحد الجواسيس في حمص:

كنا أطفالا ننظر في دهشة وحسرة إلى هؤلاء العمالقة الذين يغادروننا بطريقة عجيبة.

كانوا يصعدون السلم في هدوء وانتظام: الأكبر ثم الأصغر والسمين ثم النحيف، وذو اللحية ثم ذو الشارب ، كأنما أعدوا خطتهم للفرار منذ أمد بعيد، فهم الآن ينفذونها حرفيا ودون ضجة..

كانت السلم قصيرة لاتصل إلى أعلى الجدار، فكان من استطاع الصعود إلى السطح بصعوبة يمد يده إلى رفيقه على السلم ثم ينتشله.

وجاء دور الأسلحة، فصعد بها أحدهم ثم تناولها رفاقه على السطح.

وانتهت العملية في سلام، وما زلنا في دهشة وحسرة.

في دهشة لأن هؤلاء العمالقة لا يخرجون من باب الدار مثل كل الناس، بل يصعدون على السطوح، وفي حسرة على فراقهم، لماذا يتركنا هؤلاء الأصدقاء؟

كانت الثورة السورية الكبرى قد انتهت، وبقيت شرارات منها في بعض المدن تشتعل ثم تنطفىء، ولجأ بقايا الثوار إلى بيوت الوطنيين في المدن يتوارون عن عيون المحتلين.

ولجأ إلى بيتنا منهم عشرون ثائرا أو يزيدون. يتكدسون

في غرفة واحدة، يأكلون وينامون، وتسمع في غرفتهم دويا مثل دوي النحل، فقد كانوا طوال اليوم يقرؤون القرآن الكريم جماعات وأفرادا ويصلون ويضرعون.

كان أبي الشيخ سعيد ينفق عليهم ـ رغم ضيق ذات يده ـ ليرة ذهبية، كل يوم، ويقول للشيخة في إيمان وقناعة: اصرف ما في الجيب ، يأتيك ما في الغيب.. ثم يضيف إلى ذلك بيتا من الشعر:

اللـــه عوّدك الجميل

فقس على ما عودك

هذا البيت الذي أرى أن يجعله كل إنسان منهاجا له في سلوكه.

كانت حمص كلها بيوتا للثوار، يختفون فيها ما يشاؤون، فإذا شعروا أنهم أطالوا الإقامة في هذا البيت أو ذاك وخافوا أن ينكشف أمرهم انتقلوا سرا إلى بيت آخر في حي آخر.

والفرنسيون يلاحقونهم في كل يوم وفي كل مكان، فلا يظفرون بأحد، إنهم كالجن لا تراهم عيون المحتلين على الخصوص.

جاء إلى الفرنسيين واش من الجواسيس يقول: إنه سمع

أن الثوار في بيت الملوحي ـ ولم يعرف الجاسوس في أي بيت، واستدعى الفرنسيون رئيس الجواسيس ونقلوا إليه الخبر.

وجم الجاسوس قليلا ثم قال لسيده المستشار:

ـ المعروفون من آل الملوحي اثنان: الشيخ سعيد، وهو إمام المسجد العمري الكبير وهو رجل صالح منصرف إلى صلاته وعبادته، والثاني هو الشيخ نجيب، وهو معروف بالشغب والتمرد، وأعتقد أنه هو الذي يؤوي الثوار.

كان هذا الجاسوس يعرف تماما أن الثوار في بيتنا، وكان يكتم أمرنا، ورأى في خديعة الفرنسيين موقتا ما يمكن أن ينقذنا.

يقع بيت عمي في حي (سوق الحشيش) ويقع بيتنا في حي (جورة الشياح) وبين البيتين حوالي ثلاثة كيلومترات.

وأقبلت الكبسة ـ كما كنا نسميها ـ إلى بيت عمي، كانت مؤلفة من عشرين جنديا، ارتقت سطوح البيت، وكسرت بابه ودخلت الغرف تفتشها، غرفة بعد غرفة وخزانة بعد خزانة..

واستمر التفتيش نصف ساعة أو تزيد، ولم يجد الفرنسيون في بيت عمي أحدا من الثوار فانتقلوا إلى بيتنا.

خلال التفتيش، أرسل عمي أحد أولاده إلينا يقول:

خذوا حذركم، الفرنسيون قادمون..

وتسلق الثوار السطوح، ولاذوا بالفرار.

وجاء الفرنسيون إلى بيتنا يفتشونه فلم يجدوا أحدا..

لقد أنقذنا الجاسوس، أنقذتنا صحوة ضميره، ولولا ذلك لأبادنا الفرنسيون فالثوار مسلحون ولا يمكن أن يستسلموا قبل أن يخوضوا معركة ضارية يقتلون فيها ويقتلون.

أليس طبيعيا أن نردد مع جاسوس غوركي:

.. في نفسي رجلان اثنان يعيشان معا ثم يصطرعان. ولا يتفقان أبدا.. تلك هي القضية..

في تلك الليلة نام الأطفال في وقت مبكر، لقد كانوا يسهرون مع الثوار، يلعبون ببنادقهم ومسدساتهم الفارغة ويداعبون خناجرهم في أغمادها ويستمعون إلى حكاياتهم ومغامراتهم.. كان يثيرهم نظير النشيواتي ببأسه ورجولته، ويدهشهم خيرو الشهلا بتواضعه وبهاء طلعته، ويعجبهم عمر المجرص لرقته وطول صمته، ويهزهم شاكر السباعي، بانحراف فمه، وكثرة صيامه وصلاته..

فإذا ما ناموا حملهم الثوار إلى أمهم وهم ينادون:

ـ خذي يا أمي ، الولد نام.

ونعجب كيف تكون أمنا أمهم ـ ونحن صغار وهم كبار؟ وهم عمالقة ونحن أقزام ويتساءل ذلك الطفل، وقد بلغ الآن

الخامسة والسبعين من عمره والذي يكتب الآن هذه القصة:

.. أكان من الممكن أن يبقى حيا أولا، وأن يكتب هذه القصة ثانيا، لو لم يصب ذلك الجاسوس الخطير بصحوة ضمير..

الانسان والهاتف

كان عبد الكريم آذنا في دائرة من دوائر الدولة في مدينة حمص ، وكنت موظفا في هذه الدائرة ، كان كثير الانطواء على نفسه ، لا يكاد يختلط بأحد ، حتى زملاؤه الذين معه في الدائرة لا يكاد يسلم عليهم إلا بأطراف شفتيه ، ولا يكاد يحدثهم إلا همسا ٠

كان في الثلاثين من عمره ، لم يتزوج وما يظن أحد أنه سيتزوج ، كان يضع راتبه الصغير في صداره في آخر كل شهر ، ولا يعلم أحد أين كان ينفقه ، أما الدار التي يسكنها فكانت مؤلفة من غرفة واحدة أمامها فسحة سماوية ، وفي جانب من أرض الدار تقوم بئر عتيقة ، وقد ترك هذه الدار له والده الذي كان آخر عضو في عائلته يموت ٠٠ ومنذ ذلك الحين كان عبد الكريم يخرج من الدائرة قبل العصر فيمضي الى السوق يشتري طعاما أو يأكل في دكان لحام ، ويذهب الى البيت فلا يخرج منه حتى صباح اليوم الثاني عند الساعة السابعة ليذهب الى عمله في الدائرة ٠

وكان عمله لا يكلفه معاشرة الناس ، فقد كانت الدائرة مؤلفة من بيت قديم تحيط به من جميع أطرافه حديقة جعلها

عبد الكريم حديقة غناء ، فالازهار والورد والاشجار كلها لامعة زاهية، كان كل شيء فيها ينطق بذوق صاحبها البستاني وحرصه ونشاطه .

ولم يحدث يوما أن تغيب عبد الكريم عن عمله ، حتى في أيام الاجازة كان يأتي في الساعة المعينة فيعنى بالحديقة ويعود الى بيته كأنه في يوم دوام رسمي ، أما أن يأخذ أذنه السنوي أو أن يمرض فأمر لم يحاوله قط ، ولم يخطر في باله

كان رفاقه يريدون أن يجعلوا منه مسخرة لهم ، ولكن حرصه على عمله وعدم رده على سفاهاتهم مرة بعدمرة وصمته العجيب ونظراته الثاقبة التي كانت أكثر جدوى من الكلام جعلتهم يتخلون رويدا رويدا عن هزئهم وسخريتهم ، وينظرون اليه نظرتهم الى آلة كاتبة تؤدي واجبها في صبر دون أن تزعج أحدا من الناس ، ودون أن تسمح لأحد من الناس بإزعاجها .

وهذا هو العام العاشر الذي يقضيه في هذه الدائرة دون أن يصطدم بأجد ، لم يكن يظهر عليه أنه غبي ، ولكنه

كان من هؤلاء الذين يوحون اليك أن لهم نمطا خاصا بهم من الحياة ، لا يسمحون لأنفسهم أن يغيروا خطا من خطوطه، فكيف يسمحون للناس أن يتدخلوا في تغيير شيء من هذه الخطوط ؟

ومضت سنوات كثيرة ، وأصبح هذا الشذوذ الذي رآه فيه الناس أمرا مألوفا عاديا ، وكان الجواب على كل تساؤل

جديد عنه يرد عليه عارفوه وموظفو الدائرة عنه بكلمة واحدة (هو هكذا) وينتهي السؤال والجواب عند هذا الحد ·

شيء جديد حدث في حياة عبد الكريم ، كان مجددا لكل حملات زملائه وموظفي الدائرة عليه ، وكان مجالا للعودة الى نبش حياته مرة أخرى نبشا غريبا ·

فقد صدر بلاغ من دائرة الهاتف والبريد عند تحويل الهاتف اليدوي الى هاتف آلي يطلب فيه من الموظفين الذين يرغبون في مد خطوط الى بيوتهم تقديم طلبات لتلبى ·· وقد سمع عبد الكريم بهذا البلاغ وكان عدد الراغبين في الاشتراك في الهاتف قليلا جدا ، فقد كان الناس لا يقدرون قيمته العملية ، ثم أنهم كانوا يخشون دفع عشر ليرات شهرية تضاف اليها ثمن المخابرات الزائدة أو ثمن المخابرات الخارجية التي يطلبها الجيران هكذا بالمجان ·

على أن أعجب شيء كان ان يدخل عبد الكريم غرفة رئيس الدائرة لأول مرة دون طلب ، وإن يطلب إليه ادراج اسمه في قائمة الراغبين في الاشتراك في الهاتف ··

وكان هذا الحدث العظيم فاتحة عهد من المضايقات لعبد الكريم استمر أمدا طويلا ·

- ما شاء الله يا عبد الكريم ·· من تخابر ؟

- أظن أنه للمخابرات الدولية فهو لا يحتاج الى مخابرات داخل المدينة او حتى داخل سورية ·

- يريد أن يتزوج بنت حلال ويخابرها في كل ساعة الى البيت من الدائرة ليطمئن عليها ·

- سوف تتزاحم بنات الجيران على غرفته للقيام بمخابراتهن الغرامية ..

وانتهت المعركة الثانية كما انتهت المعارك الاولى ، لم يرد عبد الكريم على أحد ، كان ينظر بعينيه الى الذين يحدثونه في شيء هو الفهم او العتاب .. أو عدم المبالاة ، أو التهديد شيء لايمكن أن يحدد ولكنه كان ذا تأثير عظيم .. وسكت الناس .. ودخل الهاتف بيت عبد الكريم وكان كل ثلاثة أشهر تأتيه الفاتورة فيوقع عليها ويدفعها في اليوم نفسه دون ابطاء ..

وفي اليوم الاول الذي عرف فيه أصدقاء عبد الكريم ان الهاتف مدد الى بيته تجمعوا واتصلوا ببيته بعد معرفة رقم هاتفه .. وحاولوا ازعاجه .. قام أحدهم بتقليد صوت امرأة ورفع عبد الكريم السماعة وسمع دون أن يتكلم مدة غير قصيرة . وكانت المرأة تطارحه الغرام ، وعرف ان في المسألة لعبة ، وتأدى اليه صوت آخرين يضحكون فوضع السماعة كما رفعها دون أن يتكلم .. ومنذ ذلك العهد لم يستطع أحدمن الناس ان يرغمه على رفع السماعة والاصغاء الى حديث من الاحاديث مهما كان نوعه ولو بقي جرس الهاتف يرن ساعة .

كان هذا الآذن صديقا لي ، وكنت من الناس الذين يعرفون أن للناس أمزجة وأن لهم شخصيات ، أو أن لهم على أقل تقدير فرديات فهم يحترمونها ، ولم أكن أحاول أن أتدخل في أموره ، وكنت في ذلك الحين كاتبا في المحاسبة أقوم بكتابة قوائم الرواتب وأدعو الموظفين الى التوقيع عليها

وكنت في نهاية كل شهر أمر على عبد الكريم وهو في حديقته يشذبها أو يسقيها أو يتأملها فأناديه فيوقع على راتبه ويعود الى عمله او تأملاته ·· وهو يقول : شكرا ·

وكنت دائما محط رعايته ·· فهو يقدم لي من حين الى حين باقة عطرة من الأزهار تكاد تضاهي الباقة التي يقدمها الى مدير الدائرة ·

ومرض عبد الكريم وطال مرضه ، وبدا زملاؤه يزورونه في بيته ، وقمت بزيارته أول مرة ، كان لايستطيع النهوض من فراشه والحمى تهز جسمه هزا عنيفا ، والى جانب فراشه قامت منضدة صغيرة وضع عليها الهاتف ·· كان الهاتف نظيفا جدا ولكن آثار الاستعمال ظاهرة عليه ·· وتعجبت كيف كان يستعمل ··

وخرجت من زيارته وأنا مصمم أن أعود اليه بطبيب ·· وكان ذلك عند المساء ·، ولم أستطع العودة بالطبيب مباشرة ، فتأخرت عن العودة ساعتين او ثلاث ساعات ، واتفقت مع الطبيب على عيادة عبد الكريم في بيته بعد أن دللته عليه ·· وعدت إليه وحيدا ·

كان الليل قد أظلم وكان الشارع الذي فيه بيته قد أقفر ، وهممت بالعودة فليس من المعقول أن أعوده في هذا الوقت المتأخر ، أو أن يستطيع القيام من فراشه ليفتح لي الباب ··

ولكنني قررت أن أذهب ، وعندما بلغت الباب وجدته مفتوحاقليلا ·· إن آخر زائر له تركه مفتوحا رغم أن المريض

طلب اليه مرارا أن يغلقه وراءه ، لأنه لايستطيع اغلاقه .

وفتحت الباب في حذر ، ودخلت ولم أكد أصل الى باب الغرفة حتى سمعت صوت عبد الكريم عاليا واضحا يتكلم :

- كان نور ضئيل يطوف في الغرفة يجاهد للوصول الى الجدران فلا يستطيع ، وكان عبد الكريم جالسا في فراشه وقد رفع سماعة الهاتف بيده ، وصفعتني المفاجأة ، كان يتحدث في حماسة :

- أنا مريض من عشرة أيام ولم تزوريني مرة واحدة ، قولي : مسكين .. يريد أن يأكل .. يريد أن يشرب .. يريد دواء على أقل تقدير .. مالي أم ولا أب ولا أخت .. مالي غيرك .. وأنت بعيدة لا تعرفين أني مريض .. الله يسامحك .. الدنيا غرارة ، وابن آدم لا يشبعه غير التراب ، مع السلامة .. الله يسامحك .. الله يسامحك ..

ووضع عبد الكريم السماعة في مكانها واستراح قليلا ، فألقى برأسه على الوسادة ، وجعل يبكي .. ووقفت أرقب وأنفاسي تتردد في عنف :

وعاد عبد الكريم مرة أخرى الى الكلام : كان يضع السماعة على أذنه وفمه يتحدث ، وكان حديثه الآن معي : كيف حدث ذلك ؟

رحت تأتي بطبيب ، وأنت الى الآن لا تعود .. ماهذا الامل منك ياأستاذ محمود .. ألا تذكر أني كنت أهديك أحسن الازهار .. خفت من أجرة الطبيب ؟ لك الحق ولكن أنا أدفع .. لا أريد أن يدفع عني أحد .

- ما وجدت الطبيب في عيادته طيب ‥ غدا ان شاء الله ‥ لا مؤاخذة ‥ أنا أسأت الظن ‥ ووضع السماعة في هدوء ورفع يده ‥ وأدركت لقد كان عبد الكريم يضع يده الاخرى على الموضع الذي توضع عليه السماعة فلا ينتقل الصوت .

وأدار عبد الكريم القرص أربع مرات على رقم جديد ‥ والسماعة ما تزال في مكانها ‥ ثم رفعها ووضع يده في موضعها وجعل يتحدث :

كان يتحدث الان الى مدير الدائرة ‥

- صلاح بك لا مؤاخذة ‥ أنا عبد الكريم ‥ مع الأسف أنا مريض من أيام ‥ لا مؤاخذة يا صلاح بك ‥ الحديقة تطلب العمل ‥ والسقاية ‥ والورد ذبل ‥ والاشجار عطشت ‥ وأنا مريض ‥بعد أيام أترك الفراش وأعود الى العمل ‥ الله يعافيك يا صلاح بك ‥ لا مؤاخذة الله يديمك ‥

وأعاد السماعة الى مكانها ورفع يده ثم تمدد في الفراش ووضع اللحاف فوق رأسه ‥ وخفض فتيل المصباح ونام ‥ وانتظرت الطبيب ساعة أخرى فلم يأت :

- خرجت من البيت وأغلقت الباب في حذر ، وعرفت منذ اليوم مهمة جديدة يؤديها الهاتف ذو القلب الحنون للانسان ، للانسان الوحيد ‥

حمص في ٢٥-٥-١٩٦١

الإنسان والقطط

أنا مخلوق طبيعي، ويزعم الناس أني ذو شذوذ، وأنا إنسان حقيقي، ويدعي الناس أني إنسان مزيف..

يقولون مثلا أني قد بلغت السابعة والخمسين من عمري، ولم أتزوج.

وأين الشذوذ في هذا الموضوع؟ أليس في العالم عشرات الألوف من الرجال لم يتزوجوا، لم يجدوا نساء يلائمنهم بل أليس في العالم مئات الألوف من النساء لم يتزوجن، لم يجدن الرجال الذين يلائمونهن.

وأنا واحد من أولئك الرجال الذين لم يتزوجوا، لم أجد امرأة، هذا كل ما في الأمر.. كنت أريد امرأة بيضاء طويلة سمينة غنية تخطبني من أمي، فلما لم تجدني، جلست أنتظر وما أزال أنتظر..

ويقولون مثلا: إني لا أجلس في مقهى، ولا أدخن ولا أشرب خمرا، ولا أخرج من البيت إلا في وقت معين، قبل غروب الشمس بساعة، ولا أعود إلى البيت إلا في وقت معين، بعد

غروب الشمس بساعة، وماذا في هذه الأمور من شذوذ ؟

أحب أن أسرد عليك ردودي على هذه التهم واحدة بعد واحدة فقد علم الناس أني أحمل شهادة عليا قبل أن يحمل مثلها أصحاب المناصب في الدولة.

أما الجلوس في المقاهي، فهو لمن ليس لهم عمل، وعملي كثير بحمد الله، إنني مسؤول عن عدد غير قليل من مخلوقات الله، ثم لو كان الناس جميعا يجلسون في المقاهي لوجب أن تكون المقاهي أكثر عددا من البيوت.

ولا أدخن ولا أشرب الخمر، لأني أرى في الدخان ضررا كبيرا، فهو يضر القلب ويضر الجيب في آن واحد، ولأني أرى السكران يضيع عقله، ونحن نبحث عما ينمي عقلنا ويزيد وعينا، ولا أكتمك أني أحس في كثير من الأحيان أني سكران دون خمر، سكران من هموم الدنيا..

ولا أحب الخروج من البيت إلا في ساعة معينة: هي ساعة الغروب، إنك إذا شهدت الشمس تغرب خلف الوعر وأنت واقف عند الجسر الأول أو عند الحمراء رأيت منظرا عجبا، يزداد إعجابك به كلما زدت نظرا إليه، ولا أظن ي فاتني منظر الشمس الغاربة في صيف ولا شتاء، النهار يموت، والأنوار تضمحل، والكون يغمره السكون، ومن الشرق تأتيك جنود

الظلام، فهل أنا مخطىء إذا كنت أصر على رؤية هذا المشهد العظيم؟!

ثم إني لاأخرج من البيت إلا في هذه الساعة لأن لي عملا دائما فيه. فأنا مثلا أغسل ثيابي بيدي، وأطبخ طعامي بيدي، اليوم طبخت مجدرة بزيت لو ذقتها لفضلتها على خروف محشي. كانت أمي تقوم بالبيت حق القيام ظلت ستين عاما تعمل، وهي تنتظر أن أتزوج وأن تريحها زوجتي من أعباء المنزل، فلما تأخر زواجي جعلت أعينها في عملها شيئا بعد شيء بدأت أنقي البرغل والأرز والعدس، ثم جعلت أقشر البصل، ثم أحفر الكوسا، ثم تعلمت الطبخ، ورأيت الآنية الوسخة تزعج أمي فجعلت أعينها في جلائها وتنظيفها، ثم أصبحت امرأة بيت من الطراز الأول، حتى صارت أمي تقول لي وتشاركها عجائز حارتنا رأيها: لو تزوج أحمد لعاشت زوجته في أحسن حال، ولكانت أسعد نساء الأرض. ولظلت يداها بضتين نظيفتين..

ويقولون أني بخيل، وكيف أكون بخيلا وأنا أنفق على نفسي نصف دخلي، وربما أنفقت ثلثه اشتريت بيتا فيه غرفة كبيرة وأرض دار واسعة، ومع ذلك فإن هذه الأمور شخصية لا يجوز لأحد أن يتدخل فيها، وأنا أدخر مالي لأبني بيتا جديدا

أعيش فيه مع زوجتي واولادي، نعم إنهم لم يأتوا حتى اليوم، ولكنهم حين يأتون سيجدون بيتا كبيرا أنفق في بنائه كل ما ادخرت من مال.

وأخيرا ، وهنا موضع الشاهد ، يقولون أن في بيتي عددا كبيرا من القطط ، أعنى بها وأمر ضها وأطعمها وأسقيها مجانا لوجه الله.

وإنها تنام معي في غرفتي وتتزوج وتتناسل وتموت، ومتى كان العمل الإنساني مسبة وعيبا ؟ ومتى كان الرفق بالحيوان وحب مخلوقات الله شذوذا ؟

منذ ثلاثين عاما كنا ننام في دارنا في باب هود حين أيقظنا مواء هرة صغيرة، حاولنا مرارا العودة إلى النوم فلم نستطع، كان نداؤها حارا شديد الحرارة، كأنما كانت تتكلم بكلام عربي فصيح: تدعونا إلى إنقاذها ، إلى فهم قضيتها وكان البرد شديدا ، والجليد يتدلى من الميازيب كأنه الحبال، وقالت لي أمي: قم يا بني فخذها إلى مكان بعيد.

ولم يكن من عادتي أن أعصي أمي في أمر، قمت من فراشي، ولبست معطفي السميك العتيق، وفتحت باب الدار.

كانت قطة صغيرة لاتعدو حجم اليد الواحدة، وكانت وسخة قذرة يختلط تراب الشارع وماء المطر بشعرها القصير،

وتكاد عيناها تنطفئان من المرض، وكانت ترتجف من البرد وتحتمي في أقصى زاوية من الباب، وانتزعتها من مكانها انتزاعا فحاولت التملص ثم هدأت ثم اطمأنت ومضيت بها من زقاق إلى زقاق حتى ألقيتها في خندق باب التركمان وعدت خفيفا أدافع النوم عن جفوني.

ولم نكد ننام حتى استيقظنا مرة أخرى على مواء القطة، كانت تدعونا بصوت أكثر حنانا وإلحاحا، وقالت لي أمي: لعلك لم تبتعد بها كما ينبغي، خذها إلى خندق القلعة.

وقمت مرة أخرى فحملتها إلى خندق القلعة في مكان لا تستطيع أن تخرج منه وعدت إلى النوم.

واستيقظنا مرة ثالثة على موائها. كيف استطاعت القطة الضعيفة الهزيلة أن تخرج من ذلك الخندق العميق؟ ثم أن تهتدي إلى دارنا؟

كان صوتها صوت إنسان حزين، إنسان تقول إنه أخوك يستجير بك أو صديقك، وكدت أومن بتناسخ الأرواح، أترى تكون هذه القطة إنسانا شريدا بائسا حلت روحه جسد قط؟!

وخيل إلي أنها تدعوني باسمي، أنها تقول لي إن الله هو الذي أرسلها إلي لأنقذها من عذابها وتشردها وآلامها..

وخرجت ففتحت باب الدار، ونظرت إلى القطة بعينيها

المنطفئتين، وحاولت أن تنجحر في أقصى زاوية من الباب خوفا من أن أقذف بها مرة أخرى في خندق جديد أكثر عمقا، ولكني أمسكت بها في هدوء، وأدخلتها الغرفة ومضت الهرة إلى تحت المنقل وتكورت حول نفسها وجعلت تشخر..

عندما أقبل الصباح قمت وقد قررت أن أعنى بالقطة، لقد وجدت عملا أقضي به وقتا طيبا، غسلتها ونظفتها ومسحت عينيها، وأشعلت المنقل ووضعتها قربه تستدفىء، واشتريت لها لبنا، وجعلت تشرب فلما شبعت أقبلت على يدي ورجلي تلعقها.

كانت أمي تنظر إلي وتعينني في عملي.. وعند المساء قالت لي أنها زارت الشيخة خديجة، وأن الشيخة روت لها هذا الحديث النبوي الشريف: دخلت النار امرأة في هرة حبستها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض..

طبعا لقد روت والدتي هذا الحديث بغير هذه الألفاظ، بألفاظ شيخة النسوان، ولكني كنت أحفظ هذا الحديث عن ظهر قلب، ورويت لها حديثا شريفا آخر: في كل ذات كبد حرى أجر.

ومنذ ذلك الحين جعلت أحب جمع كل ماقاله الأنبياء والفلاسفة والشعراء في الحيوان، وفي الهررة على الخصوص حتى أصبح لدي كتاب..

ومضت بضعة أشهر وجاء شباط فإذا القطة الصغيرة حبلى، وإذا هي بعد قليل تلد أربع قطط صغيرة جميلة، ووجدتني فجأة صاحب أسرة كبيرة..

هل تريد أن أرميها وأمها إلى الشارع، ذلك ما لا يكون. أصبحت حامي القطط الأول في حمص ، ولم أتخل عن هذا اللقب ولن أتخلى.

منذ ذلك الحين جعلت القطط تكبر، وزاد عددها أسبوعا بعد أسبوع، وشهرا بعد شهر وسنة بعد سنة.

كنت أطوف في الشوارع والأسواق لأجد القطط الضالة فأجمعها وأحميها وفتحت لها الغرفة أبوابها ونوافذها، ووضعت لها سلما لتصعد إلى السطح وأغلقت في وجهها باب الدار حتى لاتخرج إلى الشارع فيؤذيها الأولاد ويؤذيها الناس.

أشتري لها في كل يوم رطلا من اللبن وأفت لها الخبز، وأشتري لها كل يومين رطلين من بقايا اللحوم، فهي شبعى وريا ومع ذلك فهي ويا للأسف تموت.

تغافلني فتخرج إلى الشارع فتدهسها السيارات. والسائقون لا يرحمون، أو يرميها ولد بحجر فيكسر أضلاعها، جريمة.. وحشية..

جاءني بستاني يطلب هرة، وأصر إصرارا قلت له: في

البستان وحوش، ذئاب وأبناء آوى، أخاف أن تأكلها.

قال: لا تخف وأعطيته بنتا من بناتي، تأمل.. جاء بعد أيام يذكر لي أن الذئب أكلها..

وطلب هرة أخرى، ورفضت وظل يلح حتى عجزت عن رده وأعطيته هرة ثانية: كانت تجتاز الطريق بين البساتين فدهستها سيارة جانية، ألصقت عظامها بالاسفلت... يا حرام..

ومنذ ذلك الحين أقسمت بتربة والدي لا أعطيت أحدا قطة أبدا..

منعت نهائيا خروجها إلى الشارع، ومع ذلك فربما خرج كبارها: هناك زوج من الهوارين لا أقدر عليهما يدفعان الباب برأسيهما ويدخلان، ويمدان أيديهما إلى ما تحت الباب فيفتحانه ويخرجان، ولكني لا أخاف عليهما فهما قادران على حماية نفسيهما..

ماتت أمي وقبل أن تموت أوصتني بالقطط خيرا، قالت لي: يا أحمد! برضاي عليك تزوج، أرجو الله أن يرزقك بنت حلال تحب القطط.

وهكذا أضيف إلى الشروط السابقة في الزوجة المنتظرة شرط جديد: حب القطط والعناية بها.

ومنذ ذلك الحين وأنا أبحث عن امرأة رقيقة القلب مثل

أمي، بل لقد تركت بعض الشروط السابقة، وكدت أقتصر على الشرط الجديد.

وأنا الآن في حيرة.. أريد أن أهدم بيتي القديم وأبني مكانه بيتا جديدا، وأخاف أن تتشرد القطط وتهرب، وحللت المشكلة لقد قررت استئجار بيت جديد أنقل إليه أسرتي ريثما يتم البناء الجديد.

وأنا الآن في حيرة جديدة : ماذا يحدث لهذه المخلوقات الحبيبة إذا أقمت في البناء الجديد فأنت تعرف أن هذا الطراز الحديث في البناء لا يصلح لإقامة القطط، فهو مغلق دائما، وهو خال من الساحات، يحول دون حرية القطط في التنقل والرحيل حين تشاء والعودة حين تريد.

مخلوقات مسكينة وذكية.. أصبحت كل ما بقي لي من أهلي.. أعرف أنسابها واحدة واحدة.. من يعنى بها؟ هل أتركها للشارع تدهسها السيارات ويضربها الأطفال ويمزقها البرد والجوع؟

أنا مخلوق طبيعي ويزعم الناس أني ذو شذوذ، وأنا إنسان حقيقي ويدعي الناس أني إنسان مزيف. ماذا تقول؟
السلام عليكم..

النوري والموت

كان من عادتي ـ بعد عصر كل يوم . أن أطوف في كل مكان، أستطيع الوصول إليه سيرا على الأقدام، حتى ما تكاد بقعة من العاصي، أو قطعة على الساقية، أو شجرة في بستان، أو عليق في سياج، لا تعرفني معرفة وثيقة، كنت أحمل طعامي في يد وكتابي في يد، وأمشي هكذا ساعات حتى أجد مكانا أطمئن إلى هدوئه فأضع طعامي وكتابي وأجلس على الأرض، وأفتح الكتاب وأقرأ، وأتمدد حينا بعد حين في الشمس الغاربة على العشب الأخضر الرطب، وأغمض عيني وأحلم أحلاما من كل نوع، فإذا ظهرت نجمة المساء قبل غروب الشمس كان ذلك دليلا قاطعا على تحقيق حلم من أحلامي في العلم أو المال أو النساء..

وقادتني قدماي ذات يوم إلى الوعر في الجانب الغربي من حمص كان هذا اليوم من نيسان يختلط فيه الربيع بالشتاء، وتتوزع السماء قطع من الغيوم وقطع من الصحو تتبدل مواقعها في كل لحظة وتهب على الوعر نسمة باردة حينا ودافئة حينا

وربما اشتدت فهزت أمامها ذوائب الأشجار في بساتين حمص فماست على جانبيها وهزت أوراقها الخضر الجديدة تدعوها إلى أن تستيقظ وتنمو وتمزق براعمها الصغيرة..

وتسكر بالحياة، بالنسيم بالشمس الغاربة، بالعتمة المقبلة من المشرق، وتسكرك الأرض فتلتصق بها وتقبلها وتشم رائحتها: إنها رائحة أنثى خرجت من حمام اغتسلت وتعطرت وتبرجت، ثم قالت لك بلسان كل زهرة وذرة من تراب، ونجمة من عشب، انظر إلي: كم أنا حلوة.. حلوة حتى الموت.. ماأجمل مظهري ولعل بطني في مثل جماله وأنت لاتدري..

كنت نشوان بالحياة، بالطبيعة بالأرض، بالكتاب، وأخرجت من جيبي قلمي وورقتي وجعلت أنظم الشعر:

جمالك يادنيا يثير متاعبي

ورب جمال كان عون النوائب

هنالك قرب مكاني على ساقية «الغمايا» انتصبت خيمة سوداء ممزقة من خيام النور، كنت أراها من حين إلى حين وكأنها غيمة سوداء تلتحق بالسحاب الأسود الذي يطلع هناك من المغرب..

أمام الخيمة جلس أولاد صغار كلهم صامتون، يتحلقون ولا ينطقون، كأن وقار الكبار السخيف قد حل فيهم ففارقهم

مرح الأطفال إلى غير رجعة، حتى الكلب الأسود الشرس كان يشاركهم صمتهم ووقارهم، فهو لايدنو مني، ولا ينبح علي، ويظل في مكانه يقعي على باب الخيمة لا يتحرك، وتند منه مرة بعد مرة همهمة كئيبة كأنها عواء الذئب، لا تلبث أن تختنق في حنجرته..

وفي نور الشمس الغاربة رأيت امرأة تجلس على الأرض وتمد يدها إلى شيء في الأرض تمسحه ثم ترد يدها وتضرب فخذها في قوة، وتعود فتمد يدها إلى ذلك الشيء أمامها، كان طفلا صغيرا في الثالثة من عمره يتمدد على قطعة مهترئة من جلد خروف ممزق قذر، رأيته يختلج جسده كله.. ويفتح فمه ثم يطبقه، كان كل شيء يدل على أنه يحتضر..

كانت المرأة وحدها في خيمتها المنفردة عن خيام أخرى كثيرة تقوم بعيدة في الوعر، فيهارجال ونساء وأولاد يغدون ويروحون ويلعبون، كأنهم لايعرفون ما يجري في هذه الخيمة، أو كأنهم يعرفون ما يجري ولكنه لا يهمهم في كثير ولا قليل..

وجلست قرب الخيمة وقد هز المنظر كياني..

وقامت المرأة فحملت الطفل بين يديها وجعلت تروح به وتغدو ترفعه حينا وتخفضه حينا والولد يزداد شحوبا ويتساقط نفسا بعد نفس..

واختلج خلجة أخيرة صغيرة ومات..

وكانت الإشارة الوحيدة إلى موته صرخة ضعيفة ندت من فم الأم الثكلى: يا ولدي

وأعادته إلى الأرض، وقام الأطفال من موضعهم وتحلقوا حول الطفل الميت وزادت رؤوسهم إطراقا. ومضت المرأة إلى زاوية الخيمة فحملت على كتفيها مجرفة وفأسا وخرجت من الخيمة ونظرت إلي كأنها لا تراني، ومضت إلى مكان لا يبعد أكثر من عشرين مترا عن الخيمة وبدأت تحفر قبرا..

بين صخرتين كبيرتين امتدت قطعة معشبة من التراب شقتها الفأس بسهولة، كانت الأرض الرطبة تتفتح في هدوء تحت ضربات الفأس، وتلقي ترابها في سهولة في أحضان المجرفة وتزداد رطوبتها كلما زادت الحفرة عمقا..

وقفت عند القبر وهممت أن أساعدها فخفت إزعاجها، واستمرت في عملها كأني غير موجود، لم تحس بي وكنت أرى كل شيء وأكتم أنفاسي..

وتناولت المرأة بعض الأحجار فوضعتها في الحفرة ذات اليمين وذات الشمال، ثم جاءت بحجرين كبيرين عريضين، ومضت إلى الخيمة وحملت الطفل، لم تخلع ثوبه الممزق، ولم تغسل جسده الأصفر الذي تغطيه من مكان إلى مكان مواضع

سود، حملته على يديها، وجاءت به إلى القبر وتبعها أولادها وتبع الكلب الأولاد.

وضعت الطفل في الحفرة ثم غطتها بالحجرين العريضين وأمسكت بالمجرفة، وأهالت على الحفرة التراب، ورأت بعض الأزهار البرية فوضعتها فوق التراب، ورأيت دمعة واحدة كبيرة تتجمع ثم تسقط في الحفرة وتختلط بالتراب الرطب فلا يبتلعها إلا في صعوبة، لكأن التراب يغص بدموع النساء الثاكلات..

ومن يدري، فلعلها ليست دمعة لعلها قطرة من العرق ياصاحبي..

ومدت يديها تكوم التراب على جانبي القبر، ثم مضت إلى الخيمة، وجاءت بجرة ماء وجعلت ترش بها القبر فينش.

وعادت إلى خيمتها فرزمت ذلك الجلد الذي كانت تضعه تحت ولدها الميت ورمت به خارج الخيمة.

وبقي الأولاد حول القبر ذاهلين يمسكون بأيديهم التراب ثم يرمون به إلى القبر، ثم يضربون أيديهم ينفضون عنها آثار التراب ثم تسللوا إلى الخيمة واحدا بعد واحد.. وجلسوا جلستهم الأولى..

وبقي الكلب وحده عند الحفرة.. وتركت مكاني لأنصرف وكأنما أحس الكلب فجعل يدمدم ويعوي عواء خافتا حزينا،

وقلت له: لا تخف يا كلب، فلست أريد أن آكل من جثة هذا الطفل، وأنت تأبى أن تأكل منها، صدق أني لم أشترك مرة في قتل الأطفال، ولا في أكل جثثهم، لقد تركت هذه المهمة الثقيلة لحفنة معدودة من العظماء واشباه العظماء..

وعدت إلى مكاني من الساقية وإلى أحلامي، لم يستطع الموت انتزاعها من بين يدي، إنها وحدها ملكي.. كل ما أملك..

وغربت الشمس وجاء المساء كانت مآذن خالد بن الوليد تطل على الوعر الأسود بيضاء شامخة وتلمع أهلتها الصفر في ما بقي من ضوء الغسق..

وعاد الوالد من المدينة يجر رجليه ويحمل الطبل على كتفه ويحمل على كتفه الثانية كيسا فيه بقايا خبز وتوالي طعام..

عاد من المدينة بعد أن شارك بطبله في أفراح الناس وأعيادهم. ووجد أولاده على باب الخيمة لا يهشون له ولا يتحركون لقدومه ووجد كلبه هناك لايقترب منه، ووجد امرأته جالسة وحدها وقد وضعت وجهها بين يديها وأدرك كل شيء..

وضع أثقاله وحمل الجرة الفارغة ومضى إلى الساقية فملأها، ثم عاد إلى حيث وقف الكلب ورأى القبر فسقاه وجلس

ثم جعل يصقل جانبيه بيديه، ثم مضى مرة أخرى فجاء بالطبل، وجعل يقرعه بالعصا الصغيرة.

بدأ قرع الطبل خفيفا وغير متناسق، ثم تصاعد وتصاعد وأخذ ينسجم وجعل النغم يتسع ويتدفق، حتى تقول جوقة موسيقية تعزف لحنا جنائزيا حزينا.. سمفونية عالمية مريرة..

كان الظلام قد خيم على الوعر وعلى المدينة، ولم يكن هناك قمر في السماء لعله غاب إلى الأبد، ودفن بين صخرتين، وتراكمت الغيوم في السماء واختفت قطع الصحو واحدة بعد واحدة.. وهطل رذاذ من المطر وفتحت فمي أشربه..

وعاد إلى الخيمة فجلس بين أطفاله وبقيت المرأة في مكانها لاتدنو منه ولا تحدثه وبقي الكلب في مكانه عند القبر يعوي مرة بعد مرة عواء فيه غضب وفيه ألم..

ألقيت طعامي على الأرض، وحملت كتابي بيدي وعدت إلى البيت..

ما تزال هذه الصورة في عيني لا تترك مكانها، صورة النوري والموت وقلت مخاطبا نفسي : اكتب هذه الصورة ٠٠ أسجلها على الورق ، لعلها تخفف ، لعلها تغيب ٠٠

وكتبتها !!!...

حمام

على جانبي الشارع الممتد بين وزارة الزراعة في الدقي، وبين جامعة فؤاد تقوم حياتان وحضارتان ومدنيتان: من الجانب الغربي تمتد أحياء شعبية يعيش فيها الناس كالنحل في العمل وكالدود في القذارة وكالجراد في الجوع، ومن الجانب الشرقي تمتد أحياء أرستقراطية يعيش فيها الناس كالصراصير في البطالة وكالذئاب في الافتراس، وكالخنازير في السمنة. حياتان على طرفي نقيض.

وفي الجانب الغربي تقوم حضارة القرون الأولى فاللباس ثوب ليس له شريك والأقدام ليس لها نعال، والعجلات التي تقف على مفترق الطرق والتي يجرها الحمير أو الناس هي وسائل المواصلات، والهراوات الضخمة هي أسلحة الهجوم والدفاع، وفي الجانب الشرقي تقوم حضارة القرن العشرين فاللباس آخر ما ابتكرته معاهد الأزياء في باريس ولندن، والأقدام في أحذية تكاد تساويها رقة ولينا، والسيارات الحديثة التي تقف على كل باب، هي وسائل المواصلات، والحكومة، وكل ما للحكومة من

قوى وطائرات ومدافع ودبابات، وكل ما في الدوائر من جباة وحكام وقضاة وموظفين، كل أولئك أسلحة تعد خوفا من أصحاب هاتيك الهراوات، وفي الجانب الغربي تقوم مدينة من مدن القرون الوسطى ليس فيها شوارع بل أزقة ذات أخاديد وحفر تتجمع فيها المياه القذرة السود، وتتراكم فيها الدور طبقا فوق طبق، وأكثر هذه الدور سراديب، وكلها مبنية بالتراب والأخشاب، فلا تسمع هذه الدور بوجود الشمس، قد تشعر بها لحرارتها المحرقة ولكنها لا تراها أبدا..

وفي الجانب الشرقي تقوم مدينة حديثة فخمة ، فيها شارع عبد المنعم وساحته وكلها قصور منيفة تحيط بها الحدائق الواسعة، كأن كل قصر منها مدينة قائمة وحدها، وعلى كل باب حارس أو ديدبان أو شرطي، والشوارع كلها عريضة فرشت بالاسفلت، نظيفة قد غسلت بالماء النقي غسلا، تضاحكها الشمس فتلمع على أرضها كأنها تلمع على صفحة الماء والأشجار ذات الأزهار المختلفة من حمر وصفر وبيض تقوم على جانبيها جميلة رائعة الجمال، ظليلة وارفة الظلال.

هنا عالم وهناك عالم لا يفصلهما غير طريق واحدة لا يتجاوز عرضها عشرين ذراعا، ومع ذلك فهي تفصل بين حياتين وحضارتين ومدنيتين.

كنت أسير في هذه الطريق التي تمتد بين بيتي وجامعتي مرات في كل يوم، خائفا أترقب: من أن أهوي في ذلك الجرف السحيق من الفروق بين هاتين الحياتين، خائفا أن تعثر رجلاي من هنا فأسقط في حفرة من هذه الحفر ذوات المياه السود، أو تعثر رجلاي من هناك فأسقط في حديقة من هذه الحدائق فتعضني الكلاب السود، مترقبا في كل حين أن تنتصب هذه المدينة الكادحة العاملة بكل مافيها من آلام وأمراض وجوع وجهل على تلك المدينة الغنية العاطلة المترهلة فتملؤها لا ألما ولا مرضا ولا جوعا ولا جهلا، فلست أحب ان تكون هذه المخلوقات موجودة في أي مكان، أنى كان، ولكن تملؤها رجولة وقوة وشجاعة، مترقبا في كل حين أن تنتصب تلك المدينة الغنية العاطلة المترهلة بكل ما فيها من أفراح وصحة وشبع على هذه المدينة الفقيرة الكادحة فتملؤها لا فرحا ولا صحة ولا شبعا ولا علما فلست أكره أن تكون هذه الألوان من الخير موجودة في أي مكان أنى كان، ولكن تملؤها تكالبا ووحشية.

كنت أسير في هذه الطريق صباحا وكنت أسير فيها ظهرا وكنت أسير فيها عصرا ومساء وكنت في كل حين أخاف وأترقب، ثم أنظر مرات إلى ما ها هنا من خير، وإلى ما هنالك

من شر، ثم توالت الأيام والشهور وأصبحت لا أتطلع إلى هنالك أصبحت لا أرى إلا منظرا واحدا من هذه المناظر الكثيرة الطريفة: منظر أسرة من هذه الأسر الكثيرة في الجانب الغربي قد امتدت امتدادا عجيبا إلى الجانب الشرقي ودخلت حرمه المقدس.

كان إلى جانب تلك القصور بقية باقية من أرض مربعة طولها عشرون مترا أو تزيد، وكأن هذه الأرض ما كانت لتتسع لبناء قصر فتركت في انتظار أن تضم إلى حديقة القصر المجاور لها وكأنها أثارت أطماع رجل من سكان المدينة الغربية فهاجم المدينة الشرقية واستعمرها استعمارا، وصار يزرعها ثم أقام لنفسه بيتا في ركنها الشرقي المجاور للطريق يباهي به قصور المدينة الحديثة.

كان هذا البيت كوخا واحدا من قضبان وأشواك، يعلو عن الأرض ذراعين، وله باب من صفائح الكاز العتيقة جمعت هكذا ثم كانت ما يسمونه بابا.

ويسكن في هذا الكوخ مخلوقات من أجناس مختلفة منها البشر وهم مؤلفون من هذا الرجل المستعمر وامه وزوجته وأخته وأولاده، لم أستطع أن أعدهم لأني لم أرهم كلهم يوما ما، ومنها الحيوانات الآكلة للحوم، وتتألف من كلب مخيف مربوط بسلسلة

يقف في النهار على باب الكوخ وينام في الليل في داخل الكوخ، ومنها الحيوانات آكلة الأعشاب وهي غنمة عجفاء لا تهش عليها عصا موسى، ودجاجتان تذرعان الطريق وتوقفان السيارات ثم تطيران في هدوء وتعودان إلى الطريق تذرعانه جيئة وذهوبا.

أصبح هذا الكوخ شغلي الشاغل، كنت أراه لوحة خالدة في محيط هذه المدينة الشرقية الغنية كنت أراه في كل حين يفقأ عين من يبصر، ويفتح عين من يعمى، ويصم أذن من يسمع، ويسمع أذن من هو أصم.

وما أظن أني حرمت مشهد هذه الأسرة خلال سنتين كاملتين، شاركتها في طعامها وشرابها ومرضها وعريها وبردها في الشتاء وحماها في الصيف، ولم أكن في كل هذه المظاهر من الحياة مأخوذا كما أخذت ذات يوم بحمام هذه الأسرة: ولقد كان حماما عجيبا حقا.

كان ذلك ظهر يوم من أيام حزيران وكان لابد من حمام لهذه الأسرة بعد شتاء طويل قبله خريف طويل ولم أشهد كيف استحم أعضاؤها جميعا، ولكني شهدت حمام أم هذه الأسرة كلها في ذلك اليوم.

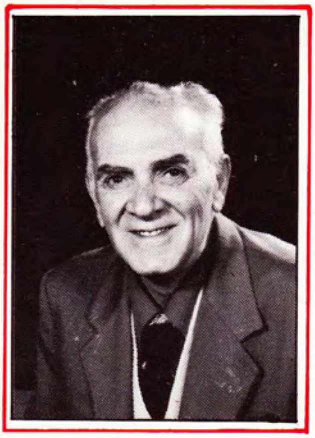
الحر شديد يخنق الأنفاس ، والأشجار واجمة مسترخية تفر إلى ظلالها من الحر فكأنها تريد أن تستظل بها ، فهي

تنحني باحثة عنها ، والشارع خال من الناس فكأنه درب في صحراء والسيارات الكبيرة تمر حينا بعد حين فتثير معها عاصفة من الغبار تعلو في تراخ وكسل وتزيد الجو اختناقا ثم تصعد إلى الجو الأبيض من القيظ فيختلط بياضها ببياضه.

والناس في هذا الكوخ في حركة لا تفتر، والأسرة كلها مشغولة بحمام الجدة العمياء العجوز أما الزوجة فتوقد نارا من مخلفات الطريق والأشجار وتضع فوقها صفيحة وتنفخ النار في حماسة وإصرار، وأما الزوج فيهبط في الحفرة يفتش عن الجذور اليابسة والأغصان المتكسرة، وأما الأطفال فهم يهرعون إلى الشارع يبحثون عن القش وعن الورق وعن كل ما يمكن أن يشتعل، وأما أخته فهي التي تقوم بمهمة العمل على غسل أمها، وأما العجوز العمياء فكانت جالسة على حجر في أقصى الشارع وقد كشفت عن ظهرها وقامت ابنتها خلفها تسكب الماء على هذا الظهر الأسود، ثم تفركه بيديها الخشنتين، ثم تسكب الماء فتتساقط طبقات من الوسخ على الأرض مع الماء ، والمرأة العجوز صامتة، ومررت فلم تحاول هي وقد سمعتني ولم تحاول ابنتها وقد رأتني أن تغطي هذا الظهر..

ولم أستطع الوقوف ففررت من مشهد هذا الحمام فرارا: إنه حمام من حمامات شعبنا.

الفهرس



* الكاتب والكتاب في سطور *

■ الكاتب :

● عبد المعين الملوحي.
● ولد في حمص عام ١٩١٧ .
● شهد - وهو طفل - بعض أحداث الثورة السورية في بلده.
● عمل في وزارة التربية ووزارة الثقافة ثم في القصر الجمهوري.
● أصدر حتى الآن ٦٧ عملاً في التراث العربي، وفي الشعر، وفي البحث وفي التراجم، وفي الأدب الذاتي.
● له عدد كبير من المخطوطات لم تنشر بعد

■ الكتاب :

● يعرض صوراً واقعية من نضال الثوار في بلده حمص.
● شهدها أو سمع بها.